

العنوان:	دور البصرة التجارى من القرن الثانى حتى القرن الرابع الهجرى
المؤلف الرئيسي:	أذبيح، عبدالحكيم غنتاب
مؤلفين آخرين:	دغفوس، راضيه(مشرّف)
التاريخ الميلادي:	1997
موقع:	تونس
الصفحات:	1 - 427
رقم MD:	692346
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة تونس للاداب والفنون والعلوم الانسانية
الكلية:	كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	المدن الإسلامية، البصرة، الإقتصاد
رابط:	<a href="https://search.mandumah.com/Record/692346">https://search.mandumah.com/Record/692346</a>

# ﴿الباب الأول﴾

## البصرة من المعسكر الى الدور التجاري

\* مقدمة

1 الفصل الأول: التأسيس والجغرافيا

الفصل الثاني: التمـدن والاستقرار

الفصل الثالث: تطور الحياة الاقتصادية

الفصل الرابع: ظهور الوظيفة التجارية

## \* مقدمة

البصرة مدينة مندثرة، لم يبق من معالمها ومؤسساتها ومنشآتها العمرانية في وقتنا الحاضر، إلا القليل جداً، وهو عبارة عن أطلال متناثرة هنا وهناك،<sup>(١)</sup> من أهمها الزاوية الشامخة المائلة للعيان في مدخل مدينة الزبير<sup>(٢)</sup>، وهي تمثل إحدى زوايا مسجد البصرة الجامع المشهور في المدينة والعالم الإسلامي، والذي كان مدرسة ثقافية جامعة علاوة على وظيفته الدينية، وهناك جزء من مجمع سكني يقع على الطريق الموازي لشارع الزبير الرئيسي، يظن أنه بقايا قصر من قصور البصرة خلال العصر الأموي عثر فيه على كثير من اللقى والزخارف،<sup>(٣)</sup> كذلك توجد عدد من التلال الأثرية المتناثرة على مساحة واسعة من أرض منطقة الزبير، وهو موقع البصرة القديمة، ولم تجر تنقيبات حتى الآن بصورة منهجية حوالي هذه المنطقة،<sup>(٤)</sup> لذلك مازالت معلوماتنا عن تكون البصرة قليلة،<sup>(٥)</sup> وعلم الآثار لم يمدنا بعد بشيء هام<sup>(٦)</sup> يسد تلك الفجوات أو يحسم التناقضات التي حملتها إلينا المصادر عن تأسيس المدينة، فضلاً عن غياب الوثائق<sup>(٧)</sup>.

- (١) وهو شأن أغلب آثار الحضارات القديمة والوسطية في المنطقة الجنوبية والوسطى من العراق، حيث البناءات من الأرض الرسوبية التي لا تصمد أمام عوامل التعرية الطبيعية.
- (٢) الزبير: مدينة تقع في ضواحي البصرة الحالية من جهة الغرب، فيها قبور الزبير والحسن البصري وطلحة الذي يقع في مدخلها من جهة الشرق، أرضها كانت تمثل الحدود الشمالية للبصرة القديمة، وتسمى وادي النساء ثم سمي وادي السباع، انظر: النبهاني، الشيخ محمد بن خليفة: التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط 2 (القاهرة 1342 هـ)، ص 4، ماسنيون، زيارة لمدينة الزبير سنة 1907، ملحق رقم (1) في كتاب خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، ط 1 (بيروت 1981) ص 53.
- (٣) عبد الجبار ناجي: من تاريخ الحركة الفكرية في البصرة (جامعة البصرة 1991) ص 4
- (٤) ماسنيون: خطط البصرة ص 11
- (٥) جعيط، هشام: الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية الطبعة الثانية (بيروت 1993) ص 326
- (٦) العلي، صالح أحمد: خطط البصرة، مجلة سومر، عدد 1952/8 ص 72، أنظر أيضاً: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري (بيروت 1969) ص 33
- (٧) لقد تعرضت آثار البصرة إلى عمليات (الحفر الجائر) خلال عهدي الاحتلال العثماني والبريطاني للعراق، سواء من قبل الأهالي أو من قبل هواة الآثار الأجانب، يذكر الشيخ عبد القادر باش أعيان العباسي (وهو من أسرة بصرية عريقة ومعروفة) في معرض حديثه عن قدم تاريخ البصرة البعيد جداً، أن بعض الأهالي في الأزمنة الأخيرة كانوا يخفرون أنقاض بيوت البصرة القديمة ويستخرجون الآخر لبيعه على سكنة ناحية الزبير، وكانوا يعثرون أثناء ذلك على بعض اليواقيت عليها نقوش كلدانية أو فارسية قديمة أو كتابات عربية كما عثروا على ←

وبالرغم من اندثار معالم المدينة وانتقال أهلها منها الى مكان آخر باتجاه نهر شط العرب، إلا أن شهرتها وعطاءها، ودورها الحضاري في شتى الميادين لم يندثر، إذ خلده تراثنا العربي الإسلامي بصور مشرقة، مبرزاً دورها في مجالات الفكر والأدب والحياة السياسية، والاقتصادية.

ومادام الأمر يتعلق في بحثنا بالمكانة التجارية التي احتلتها البصرة، وبالعطاء الذي قدمته لعدة قرون بعد تأسيسها في المجال المذكور، فإن المرء يتساءل عما إذا كانت هذه المدينة قد أسست أصلاً أو اختيرت من قبل مؤسسيها الأوائل لكونها تقع على الخليج العربي، وتشرف على عقدة طرق برية ونهرية هامة، وتتمتع بمؤهلات تجارية خاصة أم لسبب آخر؟ من المفيد هنا أن نلمح دون إطالة إلى الظروف التي رافقت نشوء المدينة، وتورix أهم الأحداث المتصلة بذلك النشوء ولغرض إظهار المراحل الكبرى لتطور المدينة العمراني وأسبابه.

---

← مسكوكات فضية ودنانير ذهبية يرجع بعضها الى العصر الأموي، وقد أثرى بعض الحفارين من بيع هذه القطع الأثرية جلسة، فكانوا يبيعونها في الهند عندما كانوا يذهبون مع تجار الخيول في العهد العثماني، ويذكر أيضاً أنه في سنة 1878م كان القنصل الفرنسي في البصرة يتبع الآثار القديمة، فكان يتجول دائماً في منطقة خرائب البصرة القديمة حتى وصل جبل سنام (جنوب غرب البصرة القديمة) فوجد بضعة تماثيل تعود الى العهد الكلداني، وفي بداية عهد الاحتلال البريطاني للعراق 1914-1920، عثر على تماثيل من الرخام وحدود قبالة أنقاض جامع البصرة القديمة وصار في حوزة الشيخ ابراهيم عبد الله الأبراهيم (شيخ قصبة الزبير سابقاً)، وقد أهمله الى السير رايني ولسن معاون الحاكم السياسي البريطاني في البصرة الذي أرسله بدوره الى المتحف البريطاني بلندن، ذكر ذلك الشيخ الابراهيم بنفسه للسيد باش أعيان، أنظر: تاريخ البصرة العظمى للشيخ ياسين باش أعيان العباسي، مخطوط غير مرقم، المكتبة العباسية بالبصرة ص 57، والشيخ عبد القادر باش أعيان العباسي، موسوعة تاريخ البصرة، الجزء الأول - خطط البصرة (بغداد- بدون تاريخ) ص 26-27.

# الفصل الأول

## التأسيس والجغرافيا

I-الفتح العربي الإسلامي للعراق وظهور البصرة

II-الموقع الجغرافي

III-الظروف البيئية

## I- الفتح العربي للعراق وظهور البصرة

تذكر المصادر أن أول إتصال للمسلمين بمنطقة البصرة (١)، كان سنة 12 للهجرة/633م، حين مَرَّبها خالد بن الوليد عند دخوله العراق من هذه الجهة (٢)، بعد فراغه من حروب الردة منتصرا أواخر سنة 11 للهجرة و(لم تكن يومئذ إلا الخريبة، وكانت منازل خربة وبها مسالح لكسرى تمنع العرب من العبث في تلك الناحية) (٣)، ووجد فيها قطبة بن قتادة مع جماعة من قومه، يشن الغارات على القوات الفارسية ساعيا للقيام بدور شبيه بما كان يقوم به المثنى بن حارثة الشيباني في الحيرة (٤)، وقد عزز مرور خالد وقاتله الفرس معهم قبل إرتحاله إلى الحيرة (٥) من فاعلية هذه الغارات، وفي محاولة لربطها بحركة الفتح الإسلامي، فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب عندما ولي الخلافة شريح بن عامر السعدي ليكون رداء لهم (٦).

ويمكننا إعتبار مرور خالد بن الوليد-إن كان قد وقع فعلا (٧) أول عملية إستطلاع نبهت المسلمين إلى أهمية هذا الموقع الإستراتيجي، فهو ثغر العراق الجنوبي ويشرف على العديد من الطرق البرية والنهرية

(1) وكانت تسمى يومئذ أرض الهند، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة

1960-1969) ج 3 ص 347، ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان (ليدن 1967) ص 188،

(2) الطبري ج 3 ص 343، البلاذري: فتوح البلدان (القاهرة 1957) ص 338، قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة

الكتابة، تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي (بغداد 1981) ص 354.

(3) الديوري: الأخبار الطوال (القاهرة 1960) ص 123، أيضا الطبري ج 3 ص 343، قدامة بن جعفر ص 354.

(4) البلاذري: فتوح البلدان ص 338، قدامة ص 354.

(5) اعتقد البعض خطأ ومنهم أرنولد ولسون في كتابة الخليج العربي، ترجمة عبد القادر يوسف (الكويت. بلا.ت) ص 128-129، إن فتح الأبلّة كان سنة 12 للهجرة في زمن أبي بكر الصديق على يد خالد بن الوليد إستنادا إلى الطبري ج 3 ص 343 (أحداث سنة 12)، وهو أمر غير صحيح تاريخيا لأن الطبري نفسه في موضع آخر من تاريخه ينكر صحة الرواية، ويذكر أن فتح الأبلّة كان أيام عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان في سنة 14 للهجرة، أنظر: الطبري ج 3 ص 350

(6) فتوح البلدان ص 341، صالح أحمد العلي، خطط البصرة ومنطقتها (بغداد 1986) ص 41-42.

(7) نعتقد أنه من المرجح دخول خالد بن الوليد العراق من هذه الجهة سالكا طريق اليمامة -البصرة ثم غرب

الفرات إلى الحيرة، فضلا عن المصادر العديدة التي أكدت ذلك كالطبري والبلاذري وقدامة وخليفة بن خياط البصري (تاريخ ص 114)، فإن طريق اليمامة البصرة هو أقصر الطرق، وكان طريقا تجاريا معروفا لدى العرب،

انظر ابن خرداذبة المسالك والممالك (ليدن 1889) ص 151، ابن رسته: الأعلام النفسية (ليدن 1889) ص

180-184 والباب الثاني من هذه الرسالة/فصل الطرق البرية.

والبحرية، ويبدو أنه أخذ يشغل اهتمامهم أكثر مع اقتراب ونضوج ظروف المواجهة الكبرى مع الإمبراطورية الساسانية في المنطقة الوسطى من العراق، ذلك المشروع الذي بدأت تتبلور معالمه مع ازدياد فاعلية الغارات التي كان يشنها المثنى وقومه على الفرس، والتي دفعت الخليفة أبا بكر إلى إنفاذ أبرز قادته العسكريين وهو خالد بن الوليد إلى المنطقة.

إن مشروع الفتح امتد بسرعة باتجاه العراق في خلافة عمر الذي سعى إلى توسيع وتنظيم الغارات التي كان يقودها المثنى وخالد على القوات الفارسية، ابتداء من سنة 13هـ/634م<sup>(1)</sup>، وبدأت عملية تحشيد القوات التي إنطلقت من شبه جزيرة العرب لفتح العراق في الأطراف الوسطى منه، قرب الحيرة، في المنطقة المواجهة للمدائن عاصمة الساسانيين ومقر حكمهم، في حين أرسلت قوة ثانوية إلى جنوب العراق قرب الأبله، كان الغرض من إنفاذها أنذاك هو مشاغلة الفرس ومنعهم من إمداد قواتهم الرئيسية التي تقايل العرب في جبهة الكوفة<sup>(2)</sup>، وحماية الجناح الأيمن للجيش الإسلامي التي تواصل عمليات قتالية هدفها نجاح حملة العراق، غير أن هذه القوة الصغيرة سرعان ما اتسعت مهماتها<sup>(3)</sup>، وزاد عددها ليتسنى لها مراقبة طريق الخليج والطرق البرية الأخرى بين العراق وفارس<sup>(4)</sup>، والقيام بشن غارات محدودة على المناطق المقابلة لها والتخوم القريبة، وقد كان على رأس تلك القوة الصحابي عتبة بن غزوان، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة، كانت الخطوة الأولى لظهور البصرة، التي تحكمت في ظهورها دوافع وحاجات عسكرية بحتة، كما تحكمت هذه الضرورات في اختيار الموقع وما تلاه من خطط.

لم تتفق الآراء تماماً حول توقيتات إنفاذ عتبة إلى المنطقة، وظهور البصرة فضلاً عن التناقض في علاقات الوقائع وعرض الظروف التي رافقت التأسيس ويمكن القول أن هناك مجموعتين مختلفتين من الروايات،

(1) هشام جعيط، الكوفة ص 8

(2) الطبري، ج 3 ص 590، المسعودي: التبيين والإشراف (بيروت 1965) ص 358

(3) صالح العلي: خطط البصرة (بغداد 1986) ص 41

(4) شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ترجمة ابراهيم الكيلاني (دمشق 1985) ص 31،

الأولى (١) تجعل من سنة 14هـ / 635م تأسيس المدينة، وأن الخليفة عمر هو الذي أرسل عتبة في شهر ربيع الأول من تلك السنة لفتح الأبله بعد مقتل شريح بن عامر الذي كان قد أوكل إليه قيادة عمليات المشاغل والإغارة على القوات الفارسية هناك ، فمكث عتبة عدة أشهر دون قتال، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يوجه بدله عبد الرحمان بن سهل، لكنه مات قبل أن يصل البصرة، فانتدب العلاء بن الحضرمي الذي كان في البحرين ليتوجه إلى البصرة ويحل محل عتبة، وقد توفي هذا أيضا، وفي هذه الأثناء أغار عتبة ففتح الأبله ثم الفرات وأبر قباذ، وفي هذا السياق نجد رواية أخرى مفادها أن الخليفة عمر ولى عتبة أمر ففتح الأبله بعدما بلغته أخبار قطبة بن قتادة، وما كان يقوم به من غارات على الفرس وما أبداه وقومه من مساعدة للقائد خالد بن الوليد عندما اجتاز منطقة البصرة سنة 12هـ/633م متوجها نحو الكوفة، وكان برفقة عتبة حين توجه إلى البصرة عدد قليل من الرجال (٢) حوالي ثلثمائة رجل ، ثم تابع عمر ارسال الرجال إليه فصار عدد قواته ثمانمائة رجل (٣).

أما المجموعة الثانية من الروايات فتشير إلى أن البصرة أسست سنة 16 أو 17 للهجرة، وأن عتبة توجه إلى منطقة البصرة بناء على أوامر من القائد العام للجيش الإسلامية في العراق سعد بن أبي وقاص، وكان تحت إمرته، وكان سعد قد تسلم أمرا من الخليفة عمر بهذا الشأن حول إنفاذ عتبة إلى تلك المنطقة ، فيذكر الطبري أن سنة تمصير (٤) البصرة هي 16هـ/637م (٥)، بينما يحددها اليعقوبي (٦) بسنة 17هـ/638م ، ويقول ابن الفقيه إن عتبة نزلها سنة 16هـ ومصرها سنة 17هـ (٧)، أما

(١) مثلها خليفة بن خياط (التاريخ)، الدينوري (الأخبار الطوال) والبلاذري (فتوح البلدان).

(٢) يذكر ابن الفقيه (البلدان ص 187) إن عتبة دخل المنطقة في أربعين رجلا .

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال ص 116-117 ، البلاذري فتوح البلدان ص 336، الطبري ج 3 ص 591-594،

ويذكر "ياقوت أن جماعة عتبة بلغ عددها ستمائة رجل"، معجم البلدان، ج 1 ص 638

(٤) يقول ماسنيون "التمصير إنتقال من حالة المعسكر إلى التوزع في إحياء حضرية" أنظر: شارل بيلا، المرجع

السابق ص 29

(٥) ج 3 ص 590

(٦) البلدان ص 7

(٧) مختصر البلدان ص 188



رواية المسعودي وهي الأقرب إلى الدقة ، فتشير إلى وقوع حادثين، الأول كان سنة 14هـ/635م عندما وصل عتبة اراضي البصرة وأقام فيها معسكرا مؤقتا اتخذه كنقطة إنطلاق لغزوات محدودة على التخوم القريبة، والثاني هو تمصير البصرة في شهر محرم سنة 17 للهجرة أو في ربيع الأول أو الثاني سنة 16 للهجرة (1).

إن التدقيق في تلك الروايات يكشف لنا أن هذا التناقض أو الاختلاف هو مفتعل ولا ينسجم وسير الأحداث ، وربما أوجدته دوافع وظروف أخرى (2)، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن أصحاب القرار في شبه جزيرة العرب، قد فكروا بتأسيس مدينة مستقرة أو (دار هجرة) حضرية، والأمر لم يحسم بعد على أرض العراق في تلك المواجهة العسكرية مع الإمبراطورية الساسانية ونعتقد أنه لا يصح الحديث عن موضوع تأسيس أو تمصير مدينة قبل النصر الحاسم في القادسية وطرد فلول الجيش الساساني من أرض العراق واستقرار الأمور نهائيا لصالح المسلمين .

إن مجريات الأحداث تدعم القول بأن الخليفة عمر بن الخطاب وجه عتبة إلى البصرة لاعتبارات عسكرية بحتة وهي مشاغلة وإلهاء الفرس من جهة الجنوب لتتمكن القوات الرئيسية وسط العراق في منطقة الكوفة من التقدم وتحقيق أهدافها العسكرية، وكانت أهم العوامل المشجعة على إنفاذه إلى هناك هي ما كانت تقوم به قبيلة بكر بن وائل من غارات على القوات الفارسية ولمحاولة ربطها بحركة الفتح، وبعد تجربة ثلاث سنوات من القتال المتصل كان معسكر جيش عتبة ينتقل فيها من مكان لآخر، وبعد محاولات (نزولات) ثلاث باءت جميعها بالفشل، وتعرضت فيها حياة الجند للخطر والمرض لوخامة المنطقة، فكر عتبة في اختيار مخيم دائم على تخوم الصحراء (3)، وكانت النجاحات العسكرية التي حققها جيش عتبة ضد

(1) التتبع والإشراف (مكتبة خياط، بيروت 1965) ص 357-8

(2) أنظر: صباح العلي: خطط البصرة ص 42-43، هشام جعيط: الكوفة ص 326-7 شارل بيللا: الجاحظ ص

(3) الطبري ج 4 ص 42، ابن الأثير: الكامل ج 2 ص 411.

القوات الساسانية وفتحة الأبله والفرات وأبرقباد هي التي دفعته إلى أخذ موافقة الخليفة لاختيار موضع دائم يجتمع فيه المقاتلون ورأى بأنه "لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم" (١).

و من الدلائل التي تشير إلى فاعلية العوامل العسكرية في ظهور المدينة في مرحلتها التأسيسية الإنتقالية المؤقتة، الشروط التي شدد عليها الخليفة عمر عند إعطاء الإذن لعبءة بالإقامة الدائمة واختيار المكان، فقد اشترط أن يكون الموضع المنتخب على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة لكي تصبح عملية وصول الإمدادات والإتصالات الأخرى مع المركز سهلة وميسورة، وكذلك يطابق الإستراتيجية العسكرية العربية في مسألة الإنسحاب إلى الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب مصاعب عسكرية، وبذلك كانت تعبيرات "على طرف البر - قريب من الريف على طرف الصحراء - لا تجعلوا بيني وبينهما - أي العرب - بحرا،" (٢) الخ، هي المعاني التي تضمنت ذلك المدلول العسكري، وقد تجسد هذا الموضوع بوضوح في اتخاذ كل من البصرة والكوفة (٣)، ولا يستبعد أيضا في هذا المجال أن يكون في قرار الإستقرار في منطقة تشرف على البادية حساب للعوامل النفسية بالنسبة للمقاتلين العرب بحيث يكون تكيفهم معها أكثر بداهة (٤)، فضلا عن توفير الأمن للجند وضمان عدم تعرضهم للتطويق والعزل من قبل قوات العدو، وليكون مكانا يضم المقاتلين فحسب، لأن المقاتلين مع عبء أتوا البصرة دون نسائهم، فيذكر ياقوت أنه كان بين جماعة عبء التي بلغ عددها ستمائة ست نساء فقط (٥)، وكانت البداية متواضعة لهذا المخيم الذي تكون من الخيام والقباب والفساطيط ولم يكن فيه

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص 425

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص 274، الطبري ج 4 ص 41-42

(٣) ظهر هذا التشدد في اختيار مواضع الامصار في المرحلة الإسلامية المبكرة فقط، فهذه الشروط لا نجدها تتكرر

ثانية في المراحل اللاحقة بعد أن استقرت عمليات الفتح لانها لا تتلائم وظروف الانتصارات الساحقة التي

حققها العرب، إذ انسابت الجيوش في مناطق واسعة وبعيدة جدا عن مركز القيادة.

(٤) هشام جعيط: الكوفة ص 69

(٥) معجم البلدان، ج 1 ص 639

أي بناء (١)، وسنجد أن الصفة العسكرية للمدينة ظلت ترافق تطورها لقرن من الزمان بعد تمصيرها.

يمكننا أن ننتهي إلى القول أنه كانت هناك لحظتان واضحتان في ظهور البصرة، الأولى تمثلت في الإقامة المؤقتة سنة 14 للهجرة بعد معركة البويب مباشرة ، والثانية هي الإقامة الدائمة المصحوبة بالتخطيط والبناء بعد النصر الحاسم في معركة القادسية، وفراغ العرب من السيطرة على العراق وطرد القوات الساسانية منه سنة 16هـ/637 (٢)، وينسب المؤرخون المسلمون بحق تأسيس البصرة إلى الصحابي عتبة بن غزوان (٣).

وكما وقع اختلاف بخصوص سنة تأسيس المدينة، فإن هناك اختلافاً أكبر في تفسير كلمة البصرة التي لم تتفق الآراء تماماً حول معناها، إن عرضنا لأهم تلك الآراء له صلة بموضوع البحث من ناحيتين: الأولى هي تأكيد قدم المدينة وتاريخها البعيد ، والثانية مكانتها التجارية السابقة.

يبدو أن العرب، بادئ الأمر لم يكونوا يعرفون إسم البصرة، كما يفهم من الأوامر والتوصيات التي صدرت من مقر الخلافة إلى القادة العرب المتوجهين لفتح العراق ففي رواية أن الخليفة أبا بكر الصديق حين أمر خالد بن الوليد بعد أن فرغ من حرب اليمامة سنة 12 للهجرة خاطبه "أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهي الأبله" (٤)، وفي رواية أخرى "ابدأ بفرج أهل السند والهند وهي يومئذ الأبله" (٥) وورد في

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص 336-345، الدينوري: الإخبار الطوال ص 117

(٢) هشام جعيط : الكوفة ص 329

(٣) من المسلمين الأوائل هاجر إلى الحبشة واشترك بمعركة بدر وقد وصف بأنه : قائد متبع لا مبتدع، دفاعي لا تعرضي، لهذا كانت خسائره قليلة جداً بالنسبة للفتوحات التي أجراها خلال وجوده في البصرة ، عن شخصية عتبة راجع: محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، الطبعة الثالثة (دار الفكر بيروت 1977)»

(٤) الطبري، ج 3 ص 343

(٥) نفسه ج 3 ص 347

الأمر الذي بعث به عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص القائد العام للجيش الإسلامية في العراق "أن حطّ قيروانك بالكوفة وابعث بعتبة بن غزوان إلى أرض الهند" (١)، وأورد الطبري أن عمر قال لعتبة بن غزوان "أريد أن أوجهك إلى أرض الهند لتمنع أهل تلك الجيزة من إمداد إخوانهم على إخوانكم" (٢)، ويؤكد المسعودي "أن عتبة قدم البصرة وهي يومئذ تدعى أرض الهند" (٣)، ويفهم من هذه النصوص وغيرها بشكل جلي أن "أرض الهند" كان إسما يطلق على عموم المنطقة الواقعة شمال الخليج العربي بما فيها الأبلّة، وما هذه التسمية إلا صدى لعلاقات هذه المنطقة الوثيقة مع الهند وأقاليم المحيط الهندي، وتؤكد سعة الصلات البحرية معها، التي كانت قائمة دون شك على أساس المبادلات التجارية والبشرية.

أما بخصوص تسمية البصرة فقد وقع تضارب كبير في شرح هذه الكلمة، وكانت التفسيرات التي قدمها اللغويون والمؤرخون العرب تكشف عن هذا الاختلاف الكبير، ففي الوقت الذي كانوا فيه على شبه اتفاق بأن اسم "البصرة" مشتق من طبيعة الأرض، فإنهم يختلفون حول لون هذه الأرض وطبيعتها، فهي "كل أرض حجارتها جص" عند الطبري (٤)، وعند ابن الفقيه (٥) "الأرض الرخوة الضاربة إلى البياض" وما ذكره المقدسي (٦)، يشير إلى اشتقاق اسمها من الحجارة السود، وقالوا: البصر والبصر والبصرة: الحجر الأبيض الرخو، وقيل هو الكذان أو هي حجارة رخوة إلى البياض ما هي وبها سميت البصرة وقال ذو الرمة يصف إيلا شربت من ماء:

تداعين بأسم الشيب في مثلم  
جوانبه من بصرة وسلام

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان (لیدن 1967) ص 188

(٢) نفس المصدر ج 3 ص 591

(٣) التبيين والإشراف ص 357-8

(٤) المصدر السابق ج 3 ص 593

(٥) البلدان ص 187

(٦) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (لیدن 1906) ص 118

وقيل أرض فلان بصرة "بضم الباء والصاد" إذ كانت حمراء طيبة<sup>(١)</sup>.

وفي المحكم لابن سيده أن البصر "بضم فسكون" هي الأرض الطيبة الحمراء ، وقال قطرب<sup>(٢)</sup> : البصرة الأرض الغليظة التي فيها حجارة صلاب تقلع وتقطع حوافر الدواب، وإنما سميت البصرة لشدتها وغلظتها<sup>(٣)</sup> وقال محمد بن شرحبيل بن حسنة: إنما سميت البصرة لأن فيها حجارة سوداء صلبة وقد أنشد الخفاف بن ندبة:

إن كان جلود بصر لا أويسه أو قد عليه وأحميه فينصدع

وقال الطرماح بن حكيم:

مؤلفة تهوى جميعا كما هوى من النيق فوق البصرة المتطحطح<sup>(٤)</sup>

وهذان البيتان يدلان على الصلابة لا الرخاوة.

لا نستطيع إذن أن نقطع بشي محدد ، ومعاجم اللغة ككتب الأخبار لا تستقر على مدلول واضح، أو شيء يمكن الإطمئنان إليه، ذلك أن مادة [ب ص ر] تعني حجارة هي رخوة بيضاء كالجص حيناً وبراقة حيناً آخر، ثم هي حمراء طيبة، أو سوداء غليظة تقلع وتقطع حوافر الدواب؟ فهل سميت حاضرة البصرة فعلاً بدلالة هذه الكلمة في العربية<sup>(٥)</sup>؟ أم إن اللغويين الأوائل قد استجدوا باللغة ففسروا كثيراً من المواد تفسيراً قد يبتعد عن الحقيقة فيفتقر إلى العلم<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن منظور ، لسان العرب (بيروت 1956) "مادة بصر"، الزبيدي تاج العروس (بيروت 1966) مادة "بصر".

(٢) قطرب (ت 206هـ) محمد بن المستنير بن أحمد، غوي عالم بالأدب واللغة من أهل البصرة له مصنفات كثيرة،

الموسوعة العربية الميسرة (المجلد الثاني) دار الشعب 1987 ص 1388

(٣) المقدسي: ص 118

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 1 ص 636-656

(٥) وقد قالوا مثل هذه الأوصاف في <<البصرة>> التي بالمغرب قرب السوس، معجم البلدان ج 1 ص 653

(٦) إبراهيم السامرائي، أشاتات بصرية ، بحث ملحق بالترجمة العربية مؤلف ماسنيون خطط بغداد والبصرة (بيروت

وقد سماها العرب لما دخلوها أول مرة بالخريبة<sup>(١)</sup>، فهناك رواية تقول إن المثنى بن حارثة الشيباني خرب "وهشتاباذ أردشير" بشن الغارات عليها فلما قدمها العرب سموها الخريبة تصغير خربة<sup>(٢)</sup>، كما سميت السيخة والمؤتفكة<sup>(٣)</sup>، ووصفت بالرعناء تشبيها برعن الجبل<sup>(٤)</sup>، وربما لتقلب مناخها في اليوم الواحد - وهو الأرجح - كما قال الفرزدق:

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا<sup>(٥)</sup>

كما لقبت بألقاب عديدة فهي أم العراق<sup>(٦)</sup>، وخزانة العرب<sup>(٧)</sup>، وعين العراق، وقبة الإسلام<sup>(٨)</sup>، وهي عين الدنيا<sup>(٩)</sup>، ومن دون شك أن هذه الأوصاف التي أطلقت على البصرة، وحفظتها لنا المصادر، استحققتها البصرة بعد أن ازدهرت وأصبحت حاضرة ذات شأن هام، إبتداء من القرن الثاني للهجرة، في ميادين الفكر والأدب والسياسة والإقتصاد..

من جانب آخر تضاربت آراء الباحثين من عرب ومستشرقين حول التفاسير التي قدمها اللغويون والمؤرخون العرب، فمنهم من وجد في مشكلة مياه الشرب في هذه المنطقة سببا لتلك التسمية (البصرة) تشبيها لها بمياه (البصرة)<sup>(١٠)</sup>، الغليظة التي عرفها العرب في نجد، ولعلهم سموها هذه الحاضرة التي مصروها بإسم تلك الماء لشبه مائها بماء تلك، ثم كان ما

← (1981) ص 27

(١) الطبري، ج 3 ص 591

(٢) ياقوت: معجم البلدان ج 3 ص 426

(٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة 1958) ج 2 ص 377

(٤) الزنجشيري، محمود بن عمر: كتاب الأمكنة والمياه والجبال، تحقيق إبراهيم السامرائي (بغداد د.ت) ص 110

(٥) معجم البلدان ج 1 ص 437

(٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج 1 (القاهرة 1963) ص 221-222.

(٧) الزبيدي: تاج العروس مادة (بصر)

(٨) الثعالبي: ثمار القلوب (القاهرة 1965) ص 163

(٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق احمد أمين وآخرون (القاهرة 1948) - ج 6 ص 249 ثمار القلوب ص 162

(١٠) البصرة: من مياه بني عقيل بنجد بالاعراف "اعراف غمره" فإذا شرب الإنسان من مائها شيئا لم يرو حتى يرسل

ذنبه (كذا) وليست ملححة جدا ولكنها غليظة، معجم البلدان، ج 1 ص 622

كان من السين والصاد من الإبدال الصوتي (1). ومنهم من حاول الرجوع بالتسمية إلى ما قبل الفتح الإسلامي ووجد في لفظة "بصريا" (2) الآرامية شدة القرب من الاسم العربي، ورد ذلك في فقرة نقلها "لسترانج" عند عرضه لكتاب جغرافي لابن سراجيون (3)، ونشير إلى أن كثيرا من المدن العراقية قد احتفظت بأسمائها الآرامية مثل: بعقوبا وديالى وبارقسايا وكوثا وبعشيقا وباجرمي، فهل تكون البصرة من هذه المواد التي انتهت بالألف المقصورة للدلالة على التأنيث في الآرامية، فتحوّلت إلى تاء التأنيث في العربية السائدة، فقالوا بعقوبة كما قالوا بعشيق (4). وهناك من أرجع تسمية البصرة إلى (بس راه) الفارسية، أي الطرق الكثيرة (5)، مستندا إلى الرواية التي أوردها ياقوت الحموي، قال حمزة بن الحسن الأصبهاني: سمعت موبذ بن أسوهشت يقول: البصرة تعريب (بس راه) لأنها كانت ذات طرق كثيرة إنشعبت منها إلى أماكن مختلفة (6)، فتقطعها الطرق الصاعدة من بلاد العرب لتنتهي في الشمال، وتلتقي عندها الآتية من فارس والهند، وربما كانت كثرة الأنهار التي عرفت بها البصرة عاملا آخر في تقوية هذه التسمية عند الفرس. يقول البلاذري "كانت دجلة تصب إلى دجلة البصرة التي تدعى العوراء - شط العرب - في أنهار متشعبة" (7)، فالمدينة مهياة منذ القديم لتكون مدينة تجارية، وكثرة الطرق بها ظاهرة طبيعية.

ويرى بعض الباحثين أن هناك علاقة بين تسمية البصرة وبين بعض المصطلحات الكلدانية القديمة التي هي "بصر" وتعني الجزء الضعيف و«بصريا» <<بصربي>> بمعنى الأفيّة و«بيت صربي» و«باصربي» و«باصرا» ومعناها محل الأكواخ (8) وهنا نلاحظ شدة القرب

(1) إبراهيم السامرائي المقال المذكور ص 71

(2) سهراب: عجائب الأقاليم السبعة (فيينا 1929) ص 135، يذكر أن بصريانا اسم أحد أهوار البطيحة القريبة من البصرة.

(3) راجع مجلة "سومر"، مديرية الآثار العامة العراقية عدد 4، سنة 1948 ص 136-41

(4) إبراهيم السامرائي ص 71

(5) أبو ملتقى الطرق، انظر خليفة بن خياط: تاريخ (دمشق د.ت) ص 115.

(6) معجم البلدان: ج 1 ص 637

(7) فتوح البلدان ص 292

(8) مجلة سومر، عدد 4 لسنة 1948 ص 136-141

بين هذه المسميات القديمة وبين الإسم العربي.

ويمكننا أن ننتهي إلى أن البصرة بلد قديم، وأنه في قدمه كان يحمل اسما قريبة من تلك التسميات العربية القديمة أو الفارسية، حتى جاء الفتح الإسلامي فإذا هو هذه الخريبة (١)، والثابت أن الخريبة لم تكن طللا حين جاءها المسلمون، بل كانت-على ما قال نافع بن الحارث (٢)- بلدا مسلحا للأعاجم (٣)، فيه عدد قليل من الحرس المكلف بالحماية والمراقبة.

وقد اعتقد العلامة هارتمان أن الموقع الذي قامت عليه البصرة - المدينة العربية الإسلامية- كانت تشغله في الماضي مدينة دريديتس Diriditis أو تريدون Teredon، التي ورد ذكرها في عهد الاسكندر الأكبر (٤)، ومع ذلك يمكن اعتبارها منشأة جديدة. وقد كانت البصرة معروفة في أوربا في العصور الوسطى باسم بلسورا Balsora، وبلسارا Balsara، وبسورا Bassora، وبسرا Basra، (٥) وكتب عنها عدد كبير من الرحالة الأوروبيين في العصور المتأخرة وحرفوا إسمها تحريفا كثيرا ومن أسمائها عندهم Bassora، Busah، و Bura، و Busra (٦).

## II-الموقع الجغرافي

اختير موقع البصرة للضرورات والأسباب آنفة الذكر، عند نافذة العراق الجنوبية، فوق عتبة من الأرض اليابسة التي تفصل منطقة البطائح (٧) عن ساحل الخليج العربي، وعلى أطراف الصحراء، فتهياً لهذا المصر موقع فريد، هو ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء (٨)،

(١) أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة (القاهرة 1971) ص 20

(٢) صحابي ومحدث كان من الإتياع الأوائل الذين رافقوا عتبة بن غزوان إلى الخريبة، وما لبث أن أصبح أحد

أقطاعي البلد الارستقراطيين، أنظر البلاذري، فتوح البلدان ص 341-343

(٣) معجم البلدان، ج 2 ص 194، البلاذري فتوح البلدان ص 340

(٤) دائرة المعارف الإسلامية - مادة البصرة - ج 3 ص 296

(٥) نفس المقال والصفحة.

(٦) التظلي، بنيامين: رحلة بنيامين، ترجمة عن العربية عزرا حداد الطبعة الأولى (بغداد 1945) ص 150.

(٧) أنظر عن البطائح الباب الثاني من هذه الأطروحة، فصل الطرق النهرية

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض (بيروت بلا.ت) ص 212، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية: ترجمة بشير فرنسيس

و كوركيس عواد (بغداد 1954) ص 25



في موضع شغلته في الماضي القريب قرى أو أديرة وربما بيوت للنار، ولم يسبق له دور سياسي أو إقتصادي،<sup>(1)</sup> وكانت طلائع المقاتلين العرب التي وصلت هذا المكان سنة 12 أو 14 للهجرة/633 أو 635م لم تجد منطقة مأهولة أو عمراناً كثيراً، بل كانت شبه خالية، الأمر الذي دفع إلى تسميتها الخريبة، فالعرب هم الذين اختاروا موضع البصرة واختطوا خططها، وكانوا أول من نزلها وبنى المساكن فيها بعد تمصيرها، وإنهم لم يتخذوا تلك الخطط على أنقاض الخريبة، كما أنهم لم يطوروا تلك الأطلال والخرائب إلى مدينة البصرة، إنما على ما يذكر الدنيوري إن عتبة هو الذي خط بعد اختيار موضع المدينة لنافع بن الحارث الثقفي (فكان نافع أول من خطط خطة البصرة)<sup>(2)</sup>.

لقد بنيت البصرة بعد تخطيطها في أرض مستوية مكشوفة متصلة بالصحراء خالية من أي عوارض أو مرتفعات تحد حدودها أو تعطل توسعها وامتدادها<sup>(3)</sup>، وهي أرض منخفضة لا يتعدى ارتفاعها مستوى سطح البحر أكثر من أربعة أمتار، وتزداد ارتفاعاً كلما توجهنا غرباً، ويقدر معدل انحدار الأرض فيها بحوالي 20,000/1<sup>(4)</sup>، وهي أرض جرداء غير ذات زرع، تفتقر إلى أي مصدر للمياه وتبعد أربعة فراسخ (12 ميلاً) عن أقرب موضع مأهول هو الأبله<sup>(5)</sup>، التي تقع على نهر شط العرب (وكان يسمى آنئذ -دجلة العوراء-)، وكانت الأبله بالإضافة إلى كونها مسلحة للفرس، ميناء تجارياً مشهوراً وقد وصفها عتبة في رسالة

(1) لومبارد، موريس: الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، ترجمة عبد الرحمن حميدة (دمشق 1979) ص 166-167.

(2) الأخبار الطوال، ص 117، ابن الفقيه ص 188

(3) ما عدا جبل سنام الذي يعد أبرز معلم طبوغرافي في المنطقة، ويقع في جنوب البصرة على طريق اليمامة البكري، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى اسفا (القاهرة 1945) ولا يزال هذا الجبل مخفياً باسمه، ويراه البصريون من سطوح دورهم. وفي شمالي سنام من ناحية البصرة يقع سفوان، وهي بقعة مرتفعة، يبدو أنها كانت طيبة تغني بها أبو نواس:

ياحبذا سفوان من مترج  
إذ كان يجتمع اللوى سفوان

أنظر ياقوت الحموي معجم البلدان ج 3 ص 248

(4) صالح العلي: خطط البصرة ص 28

(5) ابن الفقيه ص 190

الى الخليفة عمر بن الخطاب قائلاً بأنها "مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين" (١).

ولكن لماذا لم يتخذ عتبة من الأبلّة بعد فتحها مستقراً له ولجنده، ويجعل منها قاعدة عسكرية وعاصمة إدارية، ومنطلقاً لحملاته القادمة، سيما وأنه نجح في تحقيق انتصارات هامة وتوغل في أرض فارس فاتحاً النخوم والقصبات المقابلة لها؟ فالأبلّة مدينة قديمة وتتمتع بموقع ومكانة إقتصادية وتجارية متميزة، فلماذا اختير موقع المدينة الجديدة على أطراف الصحراء، ذلك الاختيار المخالف لقوانين العمران العامة، والمفسر بمجاورة البادية مع شحة مياه الشرب (٢)، حتى أنه بذلت جهود خارقة في سبيل إيصال الماء إليها، وربطها بقنوات ملاحية ضيقة؟

يبدو أن عتبة لم يتخذ من الأبلّة قاعدة له إنطلاقاً من المعايير الرئيسية لاستراتيجية العرب العسكرية في اختيار مواضع المدن الجديدة، في المرحلة المبكرة للإسلام، فقد كانت تعليمات الخليفة عمر واضحة ومشددة الى قادة الجبهتين في الكوفة والبصرة، وهي تبين إنه كان يمانع في إتخاذ المدن القديمة كمخيمات عسكرية للعرب، وبالتأكيد أن وراء ذلك أسباباً يأتي في مقدمتها الحرص على عدم انغماس العرب وانشغالهم في حياة المدن فتفتر عزائمهم (٣)، ويضيع الهدف الذي أرسلوا من أجله وهو خلق مراكز تعبئة (دور هجرة مسلحة)، يكون سكانها تحت السلاح في كل وقت، ولأي مكان ينتدبون، وتنتظرهم مهام لاحقة كبيرة وجسيمة، وربما كان ذلك القرار لأسباب أمنية كما أشرنا، إذ أن موقعاً على طرف الصحراء هو أضمن للسلامة من وضع العرب في وسط محيط من السكان المعادين لهم، وأفضل إن دعت الضرورة للإتصال السريع بداخل الجزيرة العربية أو الإنسحاب إليها في حال مواجهة أي خطر.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص 376

(٢) شارل بيلا: المرجع السابق ص 41

(٣) ينفوت الحموي: معجم البلدان ج 4 ص 212

وهكذا كان الأمر بالنسبة للأبلّة فهي ميناء تجاري محاط بالبساتين والأنهار، لذا فإن هذه الطبيعة الجغرافية ستكون عائقاً أمام تحركات العرب السريعة، وتعرقل وصول الإمدادات العسكرية، فضلاً عن كونها عائقاً لأي إنسحاب إذا ما وقع تحت ضغط العدو.

ويمكننا القول إن موقع الأبلّة القريب من البحر ومن تحصينات الفرس قد ساهم إلى حد كبير في تحديد موقع البصرة الجديدة واختيار مكانها المقترح، كما أن فتح الأبلّة وإجلاء الحامية الفارسية عنها، عجل هو الآخر في موضوع تمصيرها وقيام البناءات فيها ذلك أن المسلمين جعلوا الأبلّة خطاً دفاعياً متقدماً ومصدراً للهجمات الفارسية إذا ما وقعت، في حين اختاروا مكان البصرة على خط متأخر، مما هيأ لها ظروفًا أمنية ملائمة للتطور ساهمت في استكمال تخطيطاتها، كما أن الخليفة عمر لم يكتف بهذا الحصن الدفاعي بل أمر ببناء خط دفاع ثانٍ في جنوب نهر الأبلّة سمي فيما بعد بشط عثمان<sup>(١)</sup>.

ذكرت بعض المصادر شكل البصرة، وحدودها ومساحتها، فلها على ما يذكر المقدسي شكل "طيلسان" <sup>(٢)</sup> قد شق إليها من دجلة نهران، نهر الأبلّة ونهر معقل فإذا اجتمعاً مداً عليها (كذا)، وتشعب إليها أنهار إلى ناحية عبادان، وناحية المذار، فطولها ممتد على النهر ودورها في البر إلى البادية، ولها من هذا الوجه باب واحد، وهي من النهر إلى الباب نحو ثلاثة أميال <sup>(٣)</sup>، ويصفها اليعقوبي <sup>(٤)</sup> بأنها مدينة مستطيلة، تكون مساحتها على أصل الخطة التي خطت عليها وقت افتتاحها ولاية عمر بن الخطاب في سنة سبع عشرة، فرسخين في فرسخ [18 ميلاً مربعاً]، ويقدم ناصر خسرو <sup>(٥)</sup> (القرن الخامس الهجري) وصفاً جميلاً ودقيقاً لموقع البصرة فيقول "يتفرع من شط العرب-دجلة العوراء - قناتان كبيرتان بين منبعها

(1) أمل السعدي: الأبلّة في العهد الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد 1984) ص 155

(2) الطيلسان: كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء

(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 117

(4) البندان (ليدن 1861) ص 323.

(5) سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب (دار الكتاب الجديد بيروت 1970) ص 145

مسافة فرسخ، تتجهان صوب القبلة مسافة أربعة فراسخ، ثم تلتقيان وتكونان قناة واحدة تسير مسافة فرسخ واحد ناحية الجنوب، (١) ومن هاتين القناتين شقت ترع كثيرة مدت في كل الأطراف، وغرست أشجار النخيل والحدائق على شواطئها، القناة العليا هي الشمالية الشرقية تسمى نهر معقل، والثانية وهي الغربية الجنوبية تسمى نهر الأبله، وتتكون منهما جزيرة مستطيلة، والبصرة على أقصر ضلع من هذا المستطيل، والجنوب الغربي من البصرة صحراء ليس فيها عمران ولا ماء ولا شجر مطلقاً، إن هذه الأوصاف توضح أن شكل البصرة كان مستطيلاً، ولكننا وجدنا أنها كانت في أغلب المراحل مربعة الشكل وتمائلية لمدة طويلة، نقل الرازي (٢): "قال يزيد الرشك: أمرنا الحجاج بذرع البصرة، فذرعنا فجاءت ثلاثة أميال في خمسة أميال، قال أبو عبد الله (٣): وقد زادوا بعد ذلك في عرضها نحو ميلين أو أقل أو أكثر" أي أن أبعادها أصبحت 5x5 ميل (٤)، وهي مساحة صغيرة جداً، لا تتطابق مع ما ورد في روايات عديدة بهذا الخصوص (٥)، ففي ولاية خالد القسري (105-120هـ) كان طول البصرة فرسخين وعرضها فرسخين، على ما يذكره ابن الفقيه (٦)، وكذلك الإصطخري (٧)، ويروي ابن قتيبة أن طول البصرة في زمن نفوس الوالي كان فرسخين غير رددان (٨)، ويدد

(1) يطابق هذا الوصف ما خلص إليه لويس ماسنيون في دراسته الميدانية عن موضوع تصريف انهار البصرة، أنظر:

خطط البصرة وبغداد، ص 12

(2) الرازي: أبو العباس أحمد بن عبد الله: تاريخ صنعاء، تحقيق حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار (دمشق 1974) ص 13.

(3) لعل المقصود به: عمر بن شبه النمري المتوفى بسامراء سنة 262 للهجرة، له كتاب البصرة وأخبار أمراء البصرة، أنظر: كحالة، معجم المؤلفين (دمشق 1957) ج 7/ 286 شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون (بيروت 1979) ج 1 ص 189، الزركلي الإعلام (القاهرة 1959) ط 2، ج 5 ص 206.

(4) الميل يساوي 1760 ياردة والياردة تساوي 90 سم، وهذا يعني أن الميل يساوي 1584 متر (أكثر من كيلو متر ونصف) أنظر: هأمن، فالتر: المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي (عمان 1970) ص 94-95.

(5) يبين هذا النص أن مساحة البصرة في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي بلغت (23,760) متر مربع، أي أقل من 24 كيلو مربع، ثم زادت مساحتها لتصبح بعد الزيادة أقل من 27 كم<sup>2</sup>، وفي إعتقادنا إن هذه المساحة تعد صغيرة جداً، ولا تتناسب مع تطورها منذ تمصيرها حتى ولاية الحجاج (75-95 للهجرة)، التي استمرت زهاء عشرين سنة، على العموم فالرواية ضعيفة ولا تنسجم مع الواقع، إذا ما أخذنا مثلاً برواية يعقوبي التي أشرنا إليها، وفيها أن مساحة البصرة سنة سبع عشرة كانت 18 ميلاً مربع أي أكثر من 28,5 كم مربع.

(6) البلدان ص 190

(7) المسالك والممالك (ليدن 1927) ص 190

(8) عيون الأخبار (القاهرة 1963) ص 323

(2) على افتراض أن الفرسخ الإسلامي يساوي ستة كيلومترات ، هتسني المكابيل والأوزان الإسلامية ص94 ولكن إذا حسبنا أن الفرسخ يساوي ثلاثة أميال، والميل يساوي 1,584 كيلومتر فإن المساحة تكون أقل من الرقم المذكور وهو الأدق .

(4) الأنهار الصغيرة المتفرعة من نهر المعقل ونهر الأبله.

(5) شيخ الربرة، شمس الدين الدمشقي، خنة الدهر في عجائب البر والبحر (بظريسيورغ 1865) ص 178.





### III- الظروف البيئية

إن موقع البصرة الجغرافي هياً لها أن تكون مركزاً هاماً من مراكز الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية على أساس نشاطها التجاري المبكر في صدر الإسلام والذي تنامي بسرعة مع مطلع القرن الثاني للهجرة، لقد كان هذا الموقع المطل على أطراف السهل الخصيب، في منطقة مكشوفة ليس فيها من عوارض جغرافية تحد حدودها، عاملاً ساعد المدينة على الإمتداد والتوسع في المراحل اللاحقة إلى كل الاتجاهات، وهياً لها ظهيرا زراعياً يؤمن حاجات السكان الغذائية (من الناحية النظرية على الأقل). كما أن هذا الموقع المنفتح على الطريق البحري، عبر الخليج العربي هو الذي حدد مستقبل المعسكر بعدئذ ليصبح مدينة تجارية هامة تلعب دوراً مهماً في المنطقة والعالم الإسلامي، إلا أن المدينة بسبب موقعها هذا، الذي كان لتعليمات الخليفة عمر دور جوهري في اختياره (1)، واجهت ظروفًا بيئية غاية في الصعوبة، لا تسمح في الأقل للبصرة كي تكون ذلك البلد العظيم الذي عرفناه، فالمناخ قاس والمنطقة جرداء، تفتقر إلى أي مصدر لمياه الشرب الصالحة، فضلاً عن سوء أحوال تربتها، ولعلنا نجد في كلمة الشكوى المنسوبة للأحنف بن قيس والتي قالها بين يدي الخليفة عمر بن الخطاب نيابة عن وفد البصرة الذي تشكل لهذا الغرض (2)، في السنة الثامنة عشر للهجرة (3) خير تصوير لواقع الظروف البيئية في المدينة بعد عام واحد من تمصيرها، قال الأحنف بن قيس زعيم تميم شارحاً قضية أهل البصرة "يا أمير المؤمنين: إنك لكما ذكروا، وقد يعزب ما قد يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخير، ويسمع بأذانهم، وإننا لم نزل نزل منزلاً بعد منزل حتى أرزنا إلى البر، وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب، والجنان الخصاب، فتأتيتهم ثمارهم ولم تخضد، وإننا

(1) وهو الذي نسب إليه القول (العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل) الطبري ج 4 ص 41، فاخترار

هذا المكان أمكنه خيارات سياسية وعسكرية وثقافية، انظر: هشام جعيط الكوفة ص 67-68

(2) الطبري ج 4 ص 75

(3) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، النقود الإسلامية، (القسطنطينية 1298) ص 4.



معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة، زعقة نشاشة، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعامة، دارنا فعمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير، وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا، فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها<sup>(١)</sup>.

ربما كانت هذه الخطبة موضوعة، فقد وردت في عدة مصادر وبصياغات مختلفة<sup>(٢)</sup>، ولكنها تتجاوب مع الحقيقة<sup>(٣)</sup>، وترسم صورة الواقع البيئي للمدينة والمشاكل التي واجهها سكان البصرة الجدد ولقد كانت مسألة توفير مياه الشرب من أصعب المشاكل في البصرة منذ تأسيسها، فأمواء المدينة مجة مالحة وهي إن صلحت لسقي المزروعات فإنها غير صالحة للإستهلاك البشري<sup>(٤)</sup>، وقد ضج من فسادها الجميع منذ الأيام الأولى وكان المفروض أن البدو أكثر الناس قدرة على تحمل عنت الماء، لقد خلق موضوع تزويد المدينة بالماء العذب مشكلة نجد صداها في معظم المؤلفات التي يرد فيها ذكر البصرة<sup>(٥)</sup>.

وكما أشرنا فإن المنطقة التي انشئت فيها المدينة كانت خالية من الأنهار الفرعية التي توصل المياه العذبة، فكان أهل البصرة في أوائل أيام تأسيسها يعتمدون على مياه البطيحة التي كانت أعذب من دجلة<sup>(٦)</sup> -شط العرب- وكان ماء البطيحة يصل إلى أطراف البصرة، ولكن من الصعب

(١) الطبري ج ٤، ص ٧٥

(٢) انظر: البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٥٦، ابن الفقيه ص ١٨٩.

(٣) شارل بيلا، المرجع السابق ص ٤٨.

(٤) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر، بيروت ١٩٦٠) ص ١٩٠

(٥) يصف أبو اسحق الصائغي ماء البصرة فيقول:

هف نفسي على المقام ببغدا      د وشربي من كوز ماء بثلج  
نخن في البصرة الذميمة نسقى      شر سقيا من مائها الأترجي  
أصفر، منكر، ثقل غليظ      فائر، مثل حقنة القولنج  
كيف نرضى بشربة وبخير      منه في كنف أرضنا نستحي

أنظر: النعالي: نيمة الدهر (القاهرة ١٩٥٦). ج ٢ ص ٢٦٩

الجاحظ: الإخلاء (طبعة الجاهري ١٩٥٨) ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٦٩

تحديد مواقعه لعدم ثباتها، إذ يعتمد ذلك على كمية المياه فيها، فهو يزداد ويتسع في مواسم الفيضان (الربيع) وينحسر في موسم الصيف<sup>(١)</sup>.

إن الإجراء الفوري الذي اتخذته الخليفة عمر لمعالجة هذه المشكلة بعد تكرار الشكوى، هو أنه أمر أبا موسى الأشعري والي البصرة يومئذ أن "يحتفر لهم نهرا"<sup>(٢)</sup>، وقيل إنه باشر بحفر نهر يبدأ من نهاية خور<sup>(٣)</sup> على نهر دجلة العوراء كان طوله فرسخا، وكان لحدده مما يلي البصرة فورة واسعة تسمى قبل الإسلام الأجانة، وسمتها العرب في الإسلام الجزارة، منها ابتداء الحفر وهي تبعد عن موقع البصرة ثلاثة فراسخ، فكان طول هذا النهر -الذي عرف بنهر الأبله- أربعة فراسخ<sup>(٤)</sup>، لكن هذا المشروع الإنشائي لم يحل المشكلة، فحفرت أنهار أخرى<sup>(٥)</sup> أهمها نهر معقل، دون أن تؤدي هذه المشاريع إلى نتيجة ظاهرة. وقيل إنه لما قدم عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز عاملا على العراق<sup>(٦)</sup> من قبل يزيد بن الوليد أتاه أهل البصرة فشكوا إليه ملوحة مائهم، فكتب بذلك إلى يزيد، فكتب إليه هذا: إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق فانفقه عليه، فحفر النهر الذي يعرف بنهر ابن عمر<sup>(٧)</sup>، ولم ينتفع الناس من هذا النهر كما كان متوقعا " إذ كان الماء الذي يأتي نزرا، وكان عظم ماء البطيحة يذهب في نهر الدير، فظل البصريون يستعذبون من الأبله حتى قدم سلمان بن علي<sup>(٨)</sup> البصرة واتخذ

(١) كما يرتبط أيضا بمدى صلاحية المشاريع الأروائية وفعاليتها في الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق، فيزيد ماء البطيحة وتدخلها كميات هائلة من المياه في الأزمنة التي تتعرض فيها تلك المشاريع إلى التخريب أو الإهمال، وهو ما حدث فعلا في السنوات الأولى للفتح العربي الإسلامي، البلاذري فتوح البلدان ص 292، ابن رسته الإعلاق النفيسة ص 95.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص 356.

(٣) الخور طريق ماء لم يحفره أحد يجري فيه ماء الأمطار ويتراجع ماؤه فيه عند المد، وينضب عند الجزر، البلاذري ص 356.

(٤) ابن الفقيه، ص 189-190.

(٥) انظر الباب الثاني من هذه الرسالة/ فصل الطرق النهرية

(٦) سنة 126 للهجرة وكان والي البصرة عنه <<المسور بن عمر بن عباد>> وفي عهده ظهرت الدعوة العباسية في البصرة، انظر ابن الغملاس البصري، حوادث البصرة من تاريخ بنائها إلى حوادث سنة 1243 هـ (دار البصري بغداد 1962) ص 13.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص 370، ابن رسته ص 94.

(٨) ثالث ولاية بني عباس على البصرة (133-139 للهجرة)، في عهده الحق السواد وكور دجلة والبحرين وعمان

المغيثة<sup>(١)</sup>، وعمل مسنناتها على البطيحة فحجز الماء عن نهر الدير وصرفه إلى نهر بن عمر وأنفق على المغيثة ألف ألف درهم<sup>(٢)</sup>.

لقد كان الولاة والأشراف بالبصرة لا يستعذبون الماء من دجلة، فكانوا يحفرون الصهاريج الخاصة بهم، فقد كان للحجاج (75-95 للهجرة) صهريج يجتمع فيه ماء المطر<sup>(٣)</sup>، كما كان لابن عامر وزياد صهاريج يبيعونها للناس<sup>(٤)</sup>، ويبدو أن هذه الإجراءات والمشاريع خففت بعض الشيء من وطأة المشكلة، بدليل استمرار تدفق سيل المهاجرين على المدينة، ولكن مسألة توفر الماء العذب ظلت مصدر قلق دائم لسكان البصرة. ففي زمن أبي جعفر المنصور (136-158 للهجرة)، حين أراد أن "يستخرج ضيعة من البطيحة، كره أهل البصرة ذلك وقدموا معهم صورة البطيحة، فأخبروه أنهم يتخوفون أن يملح ماؤهم، فقال: ما أراه كما ظننتم وأمر بالإمساك"<sup>(٥)</sup>. ولعل أهم المحاولات والجهود التي بذلت في العصر العباسي لتوفير المياه العذبة لأهالي المدينة هي الأحواض التي اتخذها محمد بن سليمان بن علي والي البصرة (160-166هـ)، الذي كانت له ضيعة "تتفق غلتها على دوليها وإبلها ومصلحتها"<sup>(٦)</sup>، وكانت الميـاه المختزنة في حوض المربد موزعة في أنابيب من الرصاص إلى مسافة فرسخ ثم يرفع مستوى هذه الميـاه بواسطة دوليب كبيرة، واستمرت هذه الأحواض حتى دمرت سنة 483 للهجرة<sup>(٧)</sup>.

وعلى الرغم من كثرة الأنهار والقنوات التي شقت إليها من شط العرب في وقت مبكر ورغم تعدد المحاولات والمشاريع، فإن مشكلة الماء

← بالبصرة.

(1) المغيثة: أرض أصابها المطر فهي مغيثة.

(2) البلاذري: فتوح البلدان ص 371

(3) نفس المصدر والصفحة

(4) نفس المصدر والصفحة

(5) نفس المصدر والصفحة

(6) نفس المصدر ص 371-372

(7) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم حيدر آباد (1357هـ) ج 9 ص 53

وملوحته ظلت من أبرز صفات البصرة، حتى فترة متأخرة، فالإصطخري في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي يقارن بين الكوفة والبصرة قائلاً: إن الكوفة قريبة من البصرة في المساحة لكن هواءها أصح، وماءها أعذب من البصرة (1)، ويذكر المقدسي إن مياه البصرة ضيقة وذلك لأنه يحمل في السفن من الأبله، أما المياه المجاورة للمدينة فكانت غير طيبة ومالحة، لأنه "ثلثه ماء البحر وثلثه ماء الجزر وثلثه ماء الحجر" (2).

إن المصاعب التي لقيها البصريون للحصول على الماء العذب، ومواقف الصبر والثبات التي أبدوها لكي يوفروا لأنفسهم عنصراً أساسياً من عناصر الحياة الحضرية كانت كبيرة، ولكنها لم تقف أمام عجلة تطور وازدهار البصرة التي شقت طريقها بنفسها واحتلت تلك المكانة الهامة في العصر الوسيط في ميادين الفكر والسياسة والإقتصاد، إنه أمر ملفت للنظر حقاً. يعلق شارل بيلا على هذا الموضوع بقوله "إن فقدان ماء الشرب لدى البدوي الذي يعيش في الصحراء ليس فيه مدعاة للعجب، أما القول بأن الأجيال المقبلة وغير العربية قد استطاعت أن تألف هذه الحالة المزعجة، فهذا يفترض وجود مشكلة شائكة وسؤالاً كبيراً يبحث عن جواب" (3).

أما المشكل البيئي الثاني الذي عانت منه المدينة شديد العناء هو المناخ الذي لم يكن هو الآخر طيباً وعرف برداءته، وأوشك أن يكون هو ومشكل عدم توفر الماء العذب من أهم عوامل الطرد السكاني في هذه المنطقة، ولكن يبدو أن واقع الحال كان مختلفاً تماماً، فقد ازدهمت المدينة بالمهاجرين الجدد وأخذ عددهم يتضاعف بشكل هائل السرعة (4)، وليس هناك أي دليل على أن الدولة أرغمت أحداً على الهجرة إليها (5)، بل إن العكس هو الذي وقع أحياناً لضرورات خاصة بالدولة (6)، إذن لا بد أن هناك

(1) المسالك ص 82

(2) أحسن التقاسيم ص 118، ص 129.

(3) الجاحظ ص 50

(4) انظر التطور الديموغرافي

(5) صالح العلي، التنظيمات ص 40

(6) نقل زياد أربعين الفا من أهل البصرة إلى خراسان، كما نقل عدداً من الأزد إلى مصر، البلاذري فتوح البلدان

عوامل جذب سكاني أقوى في هذه المدينة ربما كان بعضها خصائص خفية من الماضي والإرث القديم، وبعضها استجد بفعل ذلك التفاعل الجدلي بين الإسلام والعروبة الجديدة، عروبة الحواضر والمدن التي تعاطت التجارة إلى جانب الفكر الفلسفي العميق، هذه العوامل هي التي سنحاول التركيز عليها في الفصول اللاحقة.

لقد عرفت البصرة بتغير المناخ فيها في اليوم الواحد، ذكر ياقوت في معجم البلدان ما نصه: "قال الجاحظ من عيوب البصرة إختلاف هوائها في يوم واحد، لأنهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات ولذلك سميت الرعناء".<sup>(1)</sup>

وإذا كان هذا هو حال طقس البصرة في اليوم الواحد، فهو شديد التفاوت أيضا بين الصيف والشتاء، فشتاؤها بارد "وربما جمد الماء في البصرة"<sup>(2)</sup>، وصيفها شديد الحر، يطيب قليلا إذا هبت الرياح الشمالية، وإذا هبت "الجنوب" حصلت الوخامة واشتدت أزمة الحر وكثرت الرطوبة المملة، وتضايقت الأنفاس فحصل في الأعضاء رخاوة وكسل<sup>(3)</sup>.

وقد وصف ابن لنكك هذه الحال بقوله:

نحن في البصرة في لـو      ن من العيش ظريف  
نحن ما هبت شمـال      بين جنات وريف  
فإذا هبت جنـوب      فكأننا في كنيـف<sup>(4)</sup>

إن رداءة هواء المدينة مرده كثرة المستنقعات في أرباضها الحاصلة من انحدار مياه الفيضان، وربما مكث الماء في بعض الأراضي المحيطة

◀ ص 109، انظر صالح العلي: خطط ص 47

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1 ص 436-437

(2) المقدسي ص 125

(3) التحفة النيهانية ص 12

(4) التعلاني: يتيمة الدهر ج 2 ص 125، ياقوت، ج 1 ص 436

بها عدة أشهر حتى ينتن ويتعفن الهواء<sup>(١)</sup>، وفي الوقت الذي امتدحت فيه البصرة لخصائص كثيرة طيبة فيها، فقد قيل فيها الكثير من الذم بسبب رداءة مائها وهوائها، قال عنها أبو العيناء محمد بن القاسم بن قلاذ الهاشمي<sup>(٢)</sup>، لما سئل عن البصرة، "ماؤها أجاج، وحرها عذب وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم"<sup>(٣)</sup>.

وقد انعكست تلك الطبيعة القاسية على أبدان البصريين والوانهم وكسفت وجوههم؛ وقد عاب شاعر من أهل الكوفة على أهل البصرة نحافتهم وضعف أبدانهم فكانهم العشاق المعاميد فقال<sup>(٤)</sup>:

لما كسى الله ثياب الضنى      أهل الهوى وساكني البصرة

لقد انعكست تلك الظروف المناخية والبيئية على طبيعة أرض البصرة فهي طفليه وتربتها سبخاء يعلوها الملح دائماً، فقيرة من الغطاء النباتي الطبيعي، وسبب ذلك أن مياه دجلة والفرات حين تصب في البطيحة، يتباطأ جريانها وتترسب المواد الغرينية التي يحملها فيها، وبذلك يخرج الماء من البطيحة صافياً خالياً من أية مواد غرينية تقوي التربة وتزيد من خصوبتها، إضافة إلى كثرة التبخر من تلك المياه المفترشة على مساحة واسعة من أرض المدينة ومحيطها، بسبب الحرارة الشديدة صيفاً، واستواء أرض البصرة التي جعلت مياه الأنهار تجري ببطء شديد، كل ذلك أدى إلى تكون السبخ التي تكاد تغطي معظم أرض البصرة، وقد أشار الاحنف بن قيس في كلمة الشكوى- التي ذكرناها- أمام الخليفة عمر إلى سبخ البصرة ورداءة تربتها.

والواقع أن هذه السبخ ظلت من سمات أرض البصرة-حتى اليوم- رغم كل محاولات الاستصلاح للأراضي التي جرت بعد الفتح الإسلامي،

(١) التحفة النبهانية ص 9-10

(٢) انظر: ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد ج 2 ص 145.

(٣) المبارك، عبد الحسين وآخر، من مشاهير أعلام البصرة (البصرة 1983) ص 181

(٤) أحمد كمال زكي، المرجع السابق ص 35

والتي استخدم العبيد فيها بإعداد كبيرة جدا لكسح هذه السباخ وظلوا يعملون فيها حتى أواسط القرن الثالث الهجري عندما قاموا بحركتهم المعروفة (١)، ويلاحظ أنه لم يذكر في تاريخ الدولة العربية استخدام للعبيد بهذا الحجم الواسع إلا في منطقة البصرة (٢).

وقد بذلت الدولة جهودا كبيرة لمعالجة هذه المشكلة، بدأت تقريبا منذ زمن الوالي عبد الله بن عامر، الذي قام بحركة استصلاح للأراضي وإعمارها في البصرة، ثم اتسعت في زمن ولاية زياد، وقد ذكرت المصادر روايات عديدة عن كثرة الأنهار التي حفرت والأراضي التي أقطعت واستصلحت، واستمرت حركة الإستصلاح في العصر العباسي حتى أعطت هذه السياسية أكلها وصارت البصرة الممول الغذائي الرئيسي لمناطق واسعة مجاورة لها خاصة شمال شبه الجزيرة والخليج العربي (٣)، واشتهرت البصرة أيضا بكثرة أنهارها التي قدرها الرواة بحدود المائة والعشرين ألف نهر (٤) كما عولجت مشكلة ملوحة الأرض بطرق أخرى منها استعمال السماد خاصة المفرزات البشرية والحيوانية، وهو ما تميزت به البصرة، فضلا عن طريقة كسح وجه التربة من الأملاح.

(١) الطبري، ج ٩ ص 263

(٢) صالح العلي، خطط البصرة ص 32

(٣) أنظر موضوع الزراعة، في هذه الرسالة (الباب الأول، الفصل الثالث)

(٤) الإصطخري، المسالك ص 80-81، أنظر مناقشة ذلك في فصل الطرق النهرية/الباب الثاني.

## الخاتمة

وعلى الرغم من وجود تلك الظروف البيئية الصعبة التي واجهت سكان البصرة في بداية تأسيسها، إلا أن سيل المهاجرين العرب ظل يتدفق على المدينة دون انقطاع فتضخم عدد سكانها، واتسع عمرانها بسرعة كبيرة جداً، وقد كان لطبيعة التركيب السكاني في المدينة، ولطبيعة الإجراءات الإدارية والسياسيات التي اعتمدتها الدولة في التعامل مع القبائل المهاجرة، أثره الواضح في حياة المدينة وظروفها ومراحل تطورها اللاحقة، وهي تعيش تلك التجربة الفريدة على طريق التمدن والإستقرار، وهو ما سنبحثه في الفصل القادم.



# الفصل الثاني

## التمدن والإستقرار

\*المقدمة

I -التوسع العمراني

II - سكان البصرة

1 -سكان البصرة قبل الفتح

أ- الآراميون

ب- العرب

ج-أجناس أخرى

2- سكان البصرة بعد الفتح

أ-السكان العرب

ب-العناصر غير العربية

3-التطور الديموغرافي

4-التحولات الإجتماعية

## المقدمة

في معرض مقارنته بين الكوفة والبصرة يشير المستشرق الإيطالي كايثاني إلى ظهور البصرة ويصفه بأنه كان ظهوراً عفويًا، ويعتبرها "المدينة التي تولدت من ذاتها، ولضرورة في نفسها"<sup>(١)</sup>، ويصنفها لومبارد بأنها كانت واحدة من مدن الفطريات<sup>(٢)</sup> التي نشأت ونمت سريعاً على عاتق أعداد من العرب المهاجرين إليها من شبه الجزيرة العربية ومن معتقي الإسلام الجدد من الموالي، وأشخاص من أهل الكتاب متمتعين بحماية الدولة -أهل الذمة- وبعد ثلاثين عاماً فقط من تأسيسها أصبحت تضم أكثر من 200 ألف نسمة<sup>(٣)</sup>، ويعتبر الأستاذ هشام جعيط ظهور البصرة ونموها السريع ظاهرة ما زالت غامضة، فهي ظهرت بصفة عفوية نسبياً، متواضعة في الأصل، ولم تؤسس بفعل عمل منظم ومخطط له<sup>(٤)</sup>، بل كانت ثمرة لعفوية لم يجر السيطرة عليها تماماً، وبفضل تلك العفوية حصلت البصرة على قدرة كبيرة على التطور خلافاً للكوفة -مثلاً- التي بقيت حبيسة نشأتها المنظمة جداً، والمرتبطة كثيراً، بالحرب وبمركز الحكم<sup>(٥)</sup>.

وإذا سلمنا بأراء العلماء الثلاثة هذه وغيرها عن تكون وظهور البصرة ونموها فلا بد من التساؤل والبحث عن تلك القوى الكامنة وراء ذلك النمو السريع والمذهل للمدينة، وعن ماهية العوامل التي أفرزته، سيما وأن تطور المدينة لم يمر بسلام، ودون عوائق وصعوبات جمة، منذ أيامها الأولى، فضلاً عن رداءة ظروفها البيئية-التي سبق الحديث عنها- وفقر المدينة وقلة مواردها خاصة في سنواتها الأولى<sup>(٦)</sup>.

(1) CAETANI, L, *Annali dell'Islam*, (Milan, 1905-1926) III, 2 P, 834

(2) عبارة مأخوذة عن الإنجليزية (mushrooms-towns) أو من الفرنسية (Villes-champignons) أي مدن

تنمو بسرعة خاطفة ومذهلة كنبات الفطر.

(3) موريس لومبارد، *الجغرافية التاريخية* ص 167

(4) *الكوفة* ص 154

(5) نفس المرجع ص 329

(6) الطبري ج 4 ص 75

كان تاريخ البصرة منذ نشأتها وعلى امتداد الجزء الأكبر من القرن الأول الهجري، تاريخاً مليئاً بالتعقيد والمصاعب الناجمة عن الأزمات والحروب السياسية والقبلية<sup>(1)</sup>. ولوأخذ الباحث تلك الأحداث بمعزل عن التطور العام للمدينة لخرج بصورة قاتمة من صور الإضطراب العام والفساد، التي لا تتفق وواقع الحال، ولا بد من الأخذ بنظر الاعتبار العناصر الأخرى التي أسهمت في نمو المدينة المطرد رغم كل الروادع والظروف المعيقة لتطورها وظهورها كمركز حضري، ومن ثم كمدينة ذات شأن هام، في ميادين الفكر والأدب والعلوم، وبخاصة دورها في ميدان التجارة الدولية.

إن هذا التطور الحضري بمعناه الواسع اتخذ حالة فريدة مقارنة بنشأة القاعدة العسكرية التي كانت غايتها خدمة الأغراض الحربية لجيوش الفتح، وبمرور الأيام كانت الجوانب المدنية من حياة البصرة تمتزج بجوانبها العسكرية بحيث أصبح من الصعب الفصل بينهما، فقد كان الإزدهار المتنامي للحياة الحضرية في المدينة -المعسكر، يعتمد بالدرجة الأولى على ما يدخلها من موارد ناجمة عن الفتوح الجديدة، وكان غالبية سكانها العرب يستلمون عطاء منتظماً من الدولة، يصرف لهم مقابل إستعدادهم الدائم لإمداد الجيوش بالمحاربين متى طلب منهم ذلك، وبهذا الأسلوب -بالدرجة الأساس- ضمنت الدولة مدداً متصلاً من الجنود المحاربين الذين كانوا يدفعون بالزحف الإسلامي خطوات إلى الشرق، في ذات الوقت الذي ضمنت فيه الدولة أيضاً سيلاً متصلاً من الموارد المالية التي كانت تسهم في بناء الحياة الحضرية الجديدة النامية، وفي بناء اقتصاد متين قائم على النقود، وسد الحاجات المادية الأساسية للمجتمع.

إن هذه الثنائية في تكون شخصية البصرة في هذه المرحلة، فرضتها ظروف الدولة وسياساتها المتوازنة الدقيقة، بين محاولة الحد من النفوذ

(1) أبرز تلك الأزمات والحروب التي شهدتها هذه الحقبة هي الفتنة ومعركة الجمل بعد مقتل عثمان، حرب صفين، حروب الخوارج وهجماتهم، حركة عبد الله بن الزبير، فضلاً عن التكتلات والمشاكل الداخلية بين القبائل..... الخ.

القبلي وقوته باعتباره يتقاطع وقوة الدولة وسلطانها ومركزيتها، وبين سعيها في الحفاظ على الهياكل القبلية لأغراض حربية ومالية، إن هذا الواقع الذي يبدو في الظاهر متناقضا، أضفى على شخصية البصرة طابعها المميز المتمسم بالحيوية الدافقة والاستجابة السريعة لدواعي التمدن والتطور، الذي عجلت به عوامل أخرى -سنأتي على ذكرها- كل ذلك هيا البصرة -حتى بعد أن انقطع عن أهلها العطاء في القرن الثاني للهجرة وانتهاء عصر الفتوح- أن تعتمد على نفسها، وتحلق بجناحيها مستفيدة إلى أقصى حد من موقعها الجغرافي المتميز، ومن امكانات مواطنيها من مختلف الأجناس والمراتب مستغلة خبراتهم وأموالهم لتنهض بالتجارة، لا لتتقذ نفسها فحسب بل لتزدهر وتتطور، في حين كانت شقيقتها الكوفة في هذه المرحلة تشهد التراجع والانحسار خاصة بعد تأسيس بغداد التي امتصت منها بريقها ورجالها.

وبحلول القرن الثاني للهجرة أصبحت البصرة من الأمصار الإسلامية المعروفة<sup>(1)</sup>، هي عين الدنيا<sup>(2)</sup>، وفرضة البحر ومطرح البر<sup>(3)</sup>، تاجرها أعظم الناس تجارة<sup>(4)</sup>، مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها<sup>(5)</sup> تقابل بها الدنيا جميعا<sup>(6)</sup> وصارت مركزا إداريا لجنوب العراق ومناطق الخليج العربي، ومركزا تجاريا عالميا تنتهي إليها طرق التجارة البرية والبحرية، ومنفذ العراق على تجارات الشرق من إيران حتى حدود الصين<sup>(7)</sup>، وقبل أن نعرض لمراحل نموها وتطورها العمراني والسكاني منذ نشوئها كمعسكر متواضع يضم مجموعات قبلية صغيرة، حتى أصبحت مدينة حضرية عظيمة استحققت كل الأوصاف أعلاه، نشير إلى أن هذه التجربة في الاستقرار والتمدن كانت بعيدة كل البعد عن مفهوم الجغرافية

(1) المرزوقي، أبر علي الأصفهاني: الأزمنة والأمكنة (حيدرآباد الدكن 1913) ج1 ص8

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج6 ص249، النعالي: ثمار القلوب (القاهرة 1965) ص162

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم ص128

(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار (القاهرة 1963) ج1 ص216

(5) يعقوبي: البلدان (المطبعة الحيدرية، النجف 1957) ص80

(6) المقدسي، ص113

(7) المسعودي، مروج الذهب ج1 ص140

الاستعمارية أو نظرية التنمية التخطيطية، كما أنها من جانب آخر لم تكن عقلنة وتنظيم لهجرة فوضوية، جاءت بأقوام جائعة انقضت على مناطق خضراء غنية، ولم تكن كذلك صورة من صور الإستقرار العفوي المندمج بإطار إقتصادي، أي هجرة أشخاص أو قبائل من مناطق صحراوية إلى أراض زراعية كما حدث فعلا في مراحل سابقة لظهور الإسلام، وفي مناسبات عديدة، لقد هاجرت قبائل عربية كثيرة من شبه الجزيرة العربية إلى سواد العراق والجزيرة الفراتية، ابتداء من القرن الثالث الميلادي ولكن انتقالها لم يحدث إنقلابا أو أثرا كبيرا في المناطق التي استقروا فيها إن لم يكن الكثير منها قد عاش عيشة مهمشة، إذن فكلمة الإستقرار في تجربة البصرة والكوفة لا تفي بالغرض، و لا تؤدي إلى المعنى الدقيق في تفسير ما حدث فعلا، لأنها كانت عملية تمدنية واسعة، جدت في ظروف تاريخية خاصة، هي ظروف الإنقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام في حياة العرب، واستجاب العرب لها بنزوع إرادي كامن نحو الحياة الحضرية بكل ما تعني هذه العبارة من معنى<sup>(1)</sup>.

## I- التوسع العمراني:

إن الإشارات إلى المراحل التي مر بها تطور البصرة العمراني قليلة جدا ومبعثرة في ثنايا المصادر الجغرافية والتاريخية التي يرجع أغلبها إلى القرن الرابع الهجري وقليل منها إلى القرن الثالث، بحيث لا يستطيع الباحث رسم صورة متكاملة ومتسلسلة لمجرى هذا التوسع، لذا سنشير إلى المنعرجات الهامة والمراحل الرئيسية فيه.

تتفق أغلب الروايات تقريبا في وصف المرحلة الإنتقالية الأولى التي ظهرت فيها البصرة إلى الوجود، وهي المرحلة التي سبقت التمهيد، حيث كانت البدايات العمرانية بسيطة عندما شرع العرب المسلمون يقيمون معسكرا صغيرا لاستيعاب ثلثمائة<sup>(2)</sup> أو ستمائة<sup>(3)</sup> أو ثمانمائة<sup>(4)</sup>.

(1) انظر: هشام جعيط: الكوفة ص 76-77

(2) الطبري، ج 3 ص 594

(3) ياقوت، معجم البلدان ج 1 ص 193

(4) ابن الفقيه: البلدان ص 188

واضحة إلى أن الموضع لم يصبح بعد مدينة مستقرة، فضلا عن إرتباك خططها وعدم انتظام هيئتها العمرانية خاصة فيما يتعلق بمنازل ساكنيها ومحلاتهم وبشوارعها وأسواقها، فالسمات البارزة في هذه المرحلة ما زالت تخدم الضرورات العسكرية، وهو ما يفسر تواصل عمليات التحويل في التخطيط والبناء في المراحل اللاحقة.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن البصرة في هذه المرحلة، خلافا لشقيقتها الكوفة لم تكن منطقة جذب سكاني سواء للعرب أو غيرهم، فقد كانت فتوحاتها بطيئة، ودخلها قليلا وبيئتها الطبيعية لا تشجع على الإقامة بها، كما أن الدولة لم ترغب أحدا من العرب على الهجرة إليها أو الانضمام إلى الجيش الإسلامي فيها، ولم تمنح أحدا امتيازًا خاصا في حالة التحاقه بها<sup>(1)</sup>، وقد حاول الخليفة عمر انقاذ الموقف فيها، واتخذ بعض القرارات تفاديا لقلّة مواردّها وضيق حال مقاتليها، إذ أمر بتطبيق نفس القواعد المعمول بها في الكوفة في مسألة توزيع العطاء، كما خصص لها دخل بعض المقاطعات التي كان قد فتحها مقاتلو الكوفة<sup>(2)</sup>.

إن أول توسع عمراني شهدته البصرة إرتبط من دون شك بالتطورات العسكرية الجديدة خلال الأعوام 17-22 للهجرة، فعلى إثر النجاحات الباهرة التي حققها الجيش الإسلامي في جبهة الكوفة، إندفعت القوة الصغيرة التي يقودها عتبة لمهاجمة حاميات الفرس قرب الأبلّة وأجبرتهم على الفرار، وقد انضمت إليه خلال هذه الفترة جماعات جديدة من قبائل بكر وتميم<sup>(3)</sup>. كما احتل أحد قواده وهو مجاشع بن مسعود السلمي مدينة الفرات<sup>(4)</sup>، وحين تولى المغيرة بن شعبة إمارة الجيش الإسلامي في هذه المنطقة تمكن من احتلال ميسان، ودست ميسان، وأبرقباد<sup>(5)</sup>، ويعزو الأستاذ صالح العلي النجاحات التي تحققت للمسلمين في هذه المنطقة بأنها

(1) صالح العلي، التنظيمات ص40

(2) الطبري ج4 ص160

(3) ياقوت، معجم البلدان ج1 ص638

(4) الطبري ج3 ص595، البلاذري: فتوح البلدان ص342

(5) البلاذري: فتوح البلدان ص342، الطبري ج3 ص595

جاءت نتيجة لضعف الوجود العسكري الساساني فيها، ولم تكن بفعل قوة المسلمين وكثرة عددهم، بدليل عدم حدوث معارك كبيرة وفاصلة في هذه الجهة<sup>(1)</sup>، ومع ذلك فإن هذه التطورات انعكست نتائجها سريعا على ظروف المدينة، فموقعها أصبح أكثر أمنا، وأصبح لأهل البصرة قاعدة عقارية - زراعية نتيجة الفتح وتقدم المقاتلين في إقليم خوزستان، ضمنت لهم موردا ماليا جديدا، كل ذلك شجع على توافد مجموعات جديدة من القبائل إلى المدينة. وبعد أن تمكن جيش البصرة أثناء ولاية أبي موسى الأشعري من السيطرة على كور دجلة، وفتح مدن أصفهان وقم وقاشان (21 هـ)، والتوغل في عمق بلاد فارس، هاجرت إلى البصرة جموع قبلية ضخمة<sup>(2)</sup>، وازدحمت المدينة بالسكان، واختلطت القبائل في المدينة بعضها ببعض الآخر لعدم وجود خطط مستقلة، مما تطلب إعادة النظر في تخطيط المدينة وتوزيع القبائل عليها بناء على أوامر الخليفة عمر، وكان الإنجاز الهام في هذا العهد هو تحديد قياسات الشوارع والأنهج والأزقة، فكان عرض شارع المرید وهو الشارع الأعظم ستين ذراعا، والأنهج عشرين ذراعا، والأزقة سبعة أذرع<sup>(3)</sup>، وكان موضع المسجد في الوسط ومنه تتفرع الشوارع، ولكن لما ازدحمت المدينة بالسكان مرة أخرى، أخل الناس بهذا التنظيم وتقدموا في البناء وسط الشوارع والساحات، حتى ازدحمت الشوارع وضائق بالمنازل، واختلطت أصول التنظيم التي وضعها عمر، "وكان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لأصول التأنق في البنين لقرب عهدهم بالبداوة"<sup>(4)</sup>، ولكن خطط المدينة انتظمت أكثر حينما شب الحريق فيها فالتهم البيوت والوحدات العمرانية المبنية من القصب، فاستأذن أهل البصرة الخليفة أن يعيدوا بناء ما احترق باللين بدلا من القصب فوافق على ذلك<sup>(5)</sup>، وبنى أبو موسى المسجد ودار الأمانة باللين

(1) التنظيمات ص 39

(2) نفسه ص 41

(3) خليفة بن خياط: تاريخ ص 160-167، الديوري: الأخبار الطوال ص 118

(4) التحفة النباهية ص 6، انظر ابن خلدون: المقدمة ص 65.

(5) خليفة بن خياط تاريخ ص 160-167، البلاذري: فتوح البلدان ص 342

والطين، وزرع النخيل وكان أبو بكر أول من غرسها<sup>(١)</sup>.  
ويمكننا إعتبار ولاية عبد الله بن عامر الأولى (25-36هـ/646-657م) المنعرج الأول في تاريخ البصرة التمديني لأنه كان بداية تحولها من معسكر إلى منطقة سكنية متحضرة، فقد تقدمت الفتوحات التي يقوم بها البصريون بعيدا نحو الشرق، وأصبحت قواتهم مسؤولة عن حركة الفتوح في كافة المقاطعات شرقي الخليج العربي، وأحرزت تقدما مهما في بلاد فارس، في كرمان وسجستان وخراسان، وهي مقاطعات غنية وواسعة وبذلك أصبحت البصرة تستولي على مجال خاص بها يدر عليها أموال طائلة وغنائم وفيرة<sup>(٢)</sup>، فزاد هذا الأمر من أهميتها، وأصبحت المركز المسؤول إداريا وعسكريا وماليا عن أجزاء مهمة من الساحل الشرقي للخليج العربي، وخاصة البحرين، وكان ذلك من الأسباب التي دفعت عشائر عبد القيس والأزد إلى الهجرة والإستيطان نهائيا في البصرة، وهم الذين لعبوا دورا مهما في تطور الحياة الإقتصادية، لخبرتهم الواسعة في ميدان التجارة والملاحة، كما أنهم أقل تشبعا بروح البداوة وأوسع اطلاعا على حياة الأمم الأخرى ونظمها، وقد كانوا يمارسون الزراعة في بلادهم<sup>(٣)</sup>، الأمر الذي دفع بعجلة التحضر والحياة المدنية، خطوات مهمة.

كما كان من نتائج إتساع حركة الفتوح في زمن هذا الوالي، إزدياد موارد البصرة وزيادة دخول أفرادها مما ساعد على تنشيط الحياة الإقتصادية فيها ودفع التجار ورجال الأعمال بالنزوح إليها، كما انصرف البعض لزراعة الأرض، خاصة بعد توسع الدولة في توزيع القطائع حوالي المدينة لكبار الشخصيات كعمران بن الحسين، وإبن عامر، وعثمان بن أبي العاص الثقفي<sup>(٤)</sup>، إضافة إلى عدد آخر من المنتفعين الذين مثلت سلالاتهم فيما بعد الأرستقراطية البصرية<sup>(٥)</sup>، كما أن قناة الأبله والعديد من القنوات الأخرى التي تروي مدينة البصرة قد حفرت في عهده، وتحولت المنطقة

(١) إبن الفقيه: البلدان ص 188.

(٢) الطبري ج 4 ص 266، في هذه المرحلة فقط أصبحت البصرة منافسة للكوفة، هشام جعيط الكوفة ص 79

(٣) صالح العلي: تنظيمات ص 42، خطط البصرة ص 6.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان ص 357، ياقوت، معجم البلدان ج 3 ص 290

(٥) شارل بيلا: المرجع السابق ص 42



الشرقية من البصرة إلى أراض زراعية خصبة وبدأ شكل المدينة يتغير، وحدودها تتسع، وأبدل ما تبقى من أكواخ القصب ببيوت من الطين، ثم بعد ذلك بنيت من الطابوق، كما شجع هذا الوالي الناس على اتخاذ الأسواق، وبالفعل فقد بادروا إلى شراء عدد من الدور وهدمها ثم بنى مكانها سوقا كبيرة فكان سوق (عبد الله) السوق الرئيسية داخل المدينة<sup>(1)</sup>، كما شهد عهده توافد الكثير من الأقوام غير العربية للإقامة الدائمة فيها مثل الأساورة والزرط، والسيابجة والإصفهانية، وبدأ تركيب اجتماعي جديد يتكون، مع توزيع المسؤوليات والمهام الاقتصادية، كما نمت الأعمال الحرفية نتيجة قدوم العناصر المذكورة<sup>(2)</sup>، ولا بد من الإشارة إلى أنه في زمن ولاية عبد الله بن عامر على البصرة وقع حادث مقتل الخليفة عثمان، وبدأت الفتنة الداخلية تجتاح العالم الإسلامي وتؤثر في مجرى الفتوح والسلام والإستقرار<sup>(3)</sup>.

بالرغم من أن البصرة ومنذ تأسيسها جرى تخطيط محلات السكنى فيها وفقا للنظام القبلي، كما كان عليه الحال في مدن الجزيرة العربية مكة والمدينة، وصارت هي والكوفة بذلك أنموذجا للمدن والأمصار الإسلامية الأولى، وقد أثبت هذا التنظيم نجاعته كأفضل أسلوب للتعبئة العسكرية والتنظيم الإداري والمالي، إلا أن تقسيم البصرة إلى خمس تجمعات سكنية كبرى<sup>(4)</sup> تنسب بحق إلى عهد زياد بن أبيه (45-53هـ)، لقد أقدم زياد على هذا الإجراء نتيجة التطور الكبير في عدد السكان الذي تضاعف بعد نصف قرن من تأسيس المدينة إلى أكثر من تسعين مرة، مما تطلب إعادة النظر في خطط المدينة وتوسيعها، وهذا التقسيم هو الذي استقرت عليه المدينة، وظل من سماتها المميزة لعدة قرون.

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص457

A.J NAJI and Y.N.ALI, The suqs of Basrah: commercial organization and activity in (2)

amedieval al islamic city, Journal of The Economic and Social History of The Orient,

Vol.XXIV, Part III, p; 299.

(3) حول واقع البصرة السياسي والاجتماعي في هذه الفترة العvisية، انظر هشام جعيط: الفتنة ص149-198.

(4) سنذكرها عند تناولنا لموضوع السكان.

وتعتبر فترة ولاية زياد على البصرة من المراحل المهمة في تاريخها، والمنعرج الثاني الكبير في تطورها العمراني والاقتصادي والاجتماعي، وشهدت فترة ولايته العديد من الإنجازات على صعيد التمسير وتحويل البصرة إلى مدينة حقيقية.

يلخص ابن الفقيه أهم إنجازات زياد العمرانية في البصرة بقوله: "... وبنى زياد دار الرزق<sup>(1)</sup>، وحفر نهر الأبله<sup>(2)</sup> ونهر معقل، وبنى داره، وبنى البيضاء، والحمراء فلم يضاف إليه، وبنى سكة فأسكنها أربعة من البخارية، فقل سكة البخارية فأضيف إليهم.. وبنى سبعة مساجد فلم يضاف إليه شيء منها مسجد الأساورة ومسجد بني عدي ومسجد بني مجاشع ومسجد حدان، وكل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد، وكلما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره، مثل مسناة مصعب ونهر عدي، ونهر بلبل، وباب الأصفهاني وحفيرة مطيع، وقصر ابن عمار، وحمام سياه، وحمام فيل وحمام منجاب، وقصر آوس، وباب عثمان، ومقبرة حصن، ومقبرة بني شيان، ونهر مرة، ونهر بشار..."<sup>(3)</sup> ونجد في هذه الإنجازات أن البصرة قد حققت قفزتها العمرانية الكبرى في عهد هذا الوالي الذي اهتم بجوانب أخرى كثيرة، فقد أعاد بناء المسجد الجامع بمادة الآجر والجص والحصى واستبدل سقفه بالساج، وجلب له حجارة سوارية (أعمدة المسجد) من منطقة جبال الأهواز، بلغ إرتفاع الواحد منها (30 ذراعاً)، وهو على شكل اسطواني، كان ينقر ويتقب ثم يحشى بالرصاص والحديد<sup>(4)</sup>، كما أعاد زياد بناء دار الأمانة، واهتم ببناء الأسواق والدروب والسكك ونظافتها.

وتوالى توسع البصرة العمراني في المراحل اللاحقة على أساس خططها الخمس المعروفة وقد أشادت المصادر التاريخية

(1) وهي عبارة عن مجموعة أسواق تضمها دار واسعة تحتوي على أربعة أبواب ويبدو أن الدار كانت موجودة فعلاً لكن زياد قام بتنظيمها وتوسيعها وكانت مدينة أو دار الرزق تقوم بوظيفة المخزن الكبير للطعام والمؤن الخاص بالدولة، الطبري ج5 ص222، صالح العلي، خطط البصرة، مجلة سومر ص294.

(2) يبدو أن المقصود هنا هو حفر ثان وتنظيم للنهر وتهيته للملاحة.

(3) ابن الفقيه، البلدان ص191

(4) خليفة بن خياط، تاريخ (دمشق-بدون تاريخ) ص116، البلاذري، فتوح البلدان ص426-428

والجغرافية والأدبية في وصفها إبان مجدها وازدهارها منذ أواخر القرن الأول الهجري حتى مطلع القرن الرابع، حتى بالغت بعض الروايات في وصفها، يذكر الرازي "قال القاضي يحيى بن أكثم<sup>(١)</sup>: أنه عد مساجد البصرة، فإذا فيها مائة ألف مسجد، وتسعة ألف مسجد، ستة عشر ألف منها مغلقة، وكان بالبصرة مائة ألف طراز للحاكة، وإنه أحصى مساكين أهل البصرة فوجدهم ألف ألف وسبع مائة ألف وستين ألف..."

قال أبو عبد الله<sup>(٢)</sup>، مؤلف كتاب مناقب البصرة، وجدت فيه هذه الرواية عن القاضي يحيى ابن أكثم في عدد المساجد وعدد الحاكة ما ذكره وعدد المساكين ... وقال أبو عبد الله هذا: "إن أنهار البصرة التي عليها النخل والقرى والمساجد والشوارع ثلثمائة ألف نهر"<sup>(٣)</sup>، إن المبالغة هنا واضحة في هذا النص حين يذكر أعداد مساجد البصرة أو عدد الفقراء والأنهار ومصانع النسيج اليدوية ... إلخ لكنه يمنح المرء فكرة مفيدة عن اتساع البصرة وضخامتها مقارنة بالمدن الأخرى، حتى أطلق الراوي العنان لخياله في تصور حجم المدينة وسكانها. وفي موضع آخر من تاريخ صنعاء يذكر الرازي "... قال وهب بن منبه (ت سنة 114 هـ) مثلت الدنيا على مثال الطير، فالبصرة ومصر الجناحان، والشام الرأس والجزيرة الجؤجؤ واليمن الذنب"<sup>(٤)</sup> وقد ورد مثل هذا النص في موضع آخر من هذا المصدر<sup>(٥)</sup> وفي مصادر أخرى<sup>(٦)</sup> مع اختلاف بسيط في الصياغة، والمهم في هذه

(1) قاضي البصرة يحيى بن أكثم التميمي ولي القضاء عليها في شهر رمضان سنة 202 للهجرة، واستمر حتى سنة

210 هـ وقد اتصف بالصرامة في القضاء، توفي سنة 242 هـ، وكيع: أخبار القضاة، نشر عبد العزيز المراغي.

منشورات عالم الكتب (بيروت، بدون تاريخ) ج 2 ص 161-166.

(2) لعله عمر بن شبه النعمري المتوفي سنة 262 هـ.

(3) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء ص 116

(4) تاريخ صنعاء ص 46

(5) المصدر نفسه ص 99

(6) وكيع، أخبار القضاة ج 1 ص 355

النص —وص هو تأكيدها على أهمية البصرة بالنسبة للندى —  
 أي العالم آنذاك ويذكر الإصطخري أن الكوفة أيام  
 خالد بن عبد الله القسري (71-73هـ) كانت "مثل  
 ثلثا البصرة" (1)، ويشرح المقدسي علو شأن البصرة واتساع  
 أرجاءها فيقول "وكنيت بمجلس جمع فقهاء بغداد ومشايخها فتذكروا بغداد  
 والبصرة، فتفرقوا على أنه إذا جمعت عمارات بغداد واندر خرابها لم تكن  
 أكبر من البصرة" (2)، وذكر ابن حوقل أن مؤلفات عديدة وضعت في وصف  
 البصرة، وإنها كانت إلى عهده "موجودة في جميع الأماكن" (3).

ربما كان من العوامل التي شجعت على توسع البصرة وإمتدادها،  
 هو أن مؤسسيها الأوائل لم يفكروا بتسويرها وذلك لأسباب عسكرية،  
 فالبصرة نشأت لتكون قاعدة للمقاتلين يستقرون فيها مع عيالهم بعد عودتهم  
 من القتال، فلم تكن هناك ضرورة لتحصينها، خاصة في أيامها الأولى  
 عندما كانت في طور النمو السريع غير أن تبدل أحوال المدينة وازدهارها  
 وثراء أهلها وكثرة أسواقها جعلها هدفا سهلا للقبائل البدوية والحركات  
 السياسية المعادية، وقد عانت المدينة من ذلك خلال الفترة الأموية ولكن لم  
 يبين لها سور إلا في زمن أبي جعفر المنصور، الذي وجد أن هناك  
 ضرورة في تحصين البصرة والكوفة، فتشير الروايات إلى أن والي  
 المنصور على البصرة الهيثم العتكي قام بتشيده عام 155هـ/771م، كما أنه  
 قام بحفر خندق حول المدينة، وقد استوفيت تكاليف البناء من  
 أهالي المدينة (4)، ولا توجد اشارات إلى امتداد هذا السور  
 ومحيطه، ويبدو إنه كان سورا ضعيفا لم يؤد دورا يذكر في  
 حماية البصرة (5)، وقد تهدم أوصار قديما فتم تجديده سنة  
 286هـ/899م، لتفادي خطر القرامطة الذي ظهر في

(1) المسالك والممالك ص 80

(2) أحسن التقاسيم ص 112-117

(3) صورة الأرض ص 214

(4) الطبري ج 8 ص 46، ج 10 ص 71، المقدسي أحسن التقاسيم ص 117

(5) صالح العلي، خطط البصرة ص 134

البحرين، وقد بلغت تكاليف البناء (14) ألف دينار، وظل هذا السور ماثلاً حتى زيارة ناصر خسرو (القرن العاشر الميلادي) الذي وصفه بأنه محكم وقوي<sup>(١)</sup>.

ومن المعالم العمرانية التي عرفتها البصرة الحمامات ، التي كانت تمثل مظهراً من مظاهر الحياة الحضرية الجديدة، فضلاً عن كونها تدر أرباحاً كبيرة جداً، كانت الواحدة منها "تدر كل يوم ألف درهم وطعاماً كثيراً" <sup>(٢)</sup> مما شجع على انتشارها، وينسب إلى زياد بناء هذه الحمامات، وهو الذي اشترط لإنشائها الإذن المسبق من والي وأن تكون خارج حدود المدينة<sup>(٣)</sup>، ويذكر البلاذري وابن الفقيه أن أول حمام اتخذ في البصرة هو حمام عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي<sup>(٤)</sup>، ثم انتشر بناؤها في المدينة، ولما كانت الدولة هي التي تأذن بالإستغلال لها، فقد أصبحت من نصيب المقربين من الحكم، سواء كانوا عرباً أو موالى، وقد ورد ذكر أربعة عشر حماماً مشهورة في البصرة <sup>(٥)</sup> ويذكر ابن الغملاس أنه كان في البصرة سنة 226 للهجرة سبعة آلاف حمام <sup>(٦)</sup>، وهو رقم ربما فيه مبالغة ولكنه يشير إلى كبر حجم المدينة وإلى انتشار هذه الحمامات في كل مكان منها، إن كثرة الحمامات وحجم مداخيلها في اليوم الواحد بحيث استرعت إهتمام الرواة والمؤرخين والشعراء وتطلبت تدخل الدولة في تنظيمها وتحديد أماكنها، هو أمر ينطوي على جانب كبير من الأهمية على صعيد توجه المصر نحو حياة التمدن، ونزوع الأفراد إلى الإهتمام بالصحة الشخصية، وقد كان للدين الإسلامي أثره الواضح في ذلك لارتباطه بالممارسات التعبدية وحثه على النظافة، كما أنها تعكس من جانب آخر المستوى المعاشي الجيد الذي صار عليه المجتمع البصري.

(1) ناصر خسرو، سفرنامه (ترجمة يحيى الخشاب) ص 146، زارها سنة 443هـ.

(2) البلاذري فتوح البلدان ص 352.

(3) المصدر نفسه ص 353

(4) فتوح البلدان ص 353، البلدان ص 191

(5) أنظر: صالح العلي خطط البصرة ص 274

(6) ابن الغملاس حوادث البصرة ص 21.

ومع بدايات ازدهار البصرة أنشئت فيها الدور الكبيرة والقصور  
 الفخمة التي أعطت ملامح قوية لشخصيتها الجديدة، ولعبت دورا في تنمية  
 الحياة العقلية والأدبية فيها، فضلا عن كونها تعبر عن رسوخ مظاهر  
 التمدن والاستقرار، وتعكس مستوى الثراء الذي وصل إليه البعض من  
 ساكنيها، وقد ذكرت المصادر التاريخية والأدبية كثيرا من تلك القصور  
 الفخمة، كالقصر الأحمر، والقصر الأبيض، وقصر النواحق، وقصر  
 المسيرين، وقصر النعمان، وقصر آوس وقصر أنس<sup>(١)</sup>، وكانت معظم هذه  
 القصور تبنى في أطراف المدينة، إذ يبدو أن الناس كانوا يفضلون بناء  
 قصورهم بعيدا عن الأماكن المزدحمة، بحثا عن فضاء أرحب، وهواء أنقى  
 وتكون بعيدة عن عيون الفضوليين، فضلا عن سهولة تأمين الحماية لها<sup>(٢)</sup>،  
 ففي شمال شرق البصرة أقام سليمان بن علي والي البصرة أيام الرشيد  
 قصرة قرب البطيحة في ضيعة يقال أنه أتفق عليها مليون درهم، ~~وبني~~  
~~في~~ ~~بني~~ ~~الرشيد~~ ~~بالقرب~~ ~~منه~~ ~~قصرا~~ ~~مماثلا~~ ~~في~~ ~~ضيعة~~ ~~السيطرة~~<sup>(٣)</sup>، وكان  
 قصر أنس أيضا على أطراف البطيحة تحيطه بساتين وكروم ومزارع  
 خصبة، وظل بجماله يثير خيال الشعراء، فقال فيه الخليل بن أحمد  
 الفراهيدي:

زر وادي القصر نعم القصر والوادي  
 لا بد من زورة من غير ميعاد  
 ترفأ به السفن والظلمان واقفة  
 والضرب والنون والملاح والحادي<sup>(٤)</sup>

وقال فيه الجاحظ "ومن أتى وادي القصر بالبصرة، رأى أرضا كالكاפור،  
 ورأى ضبابا تحترش، وغزلانا وسمكا وصيادا، وسمع غناء ملاح في

(١) البلاذري: فتوح ص 355

(٢) صالح العلي، خطط البصرة ص 53

(٣) البلاذري: فتوح ص 364

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج 1 ص 217

سفينته، وحذاء جمال خلف بعيرة<sup>(١)</sup>، وكان القصر الأبيض ملكا لعبيد الله بن أبي بكره، يقال أنه اشتراه من عبد الله بن عثمان بن أبي العاص وأنفق على زخرفته مليون درهم<sup>(٢)</sup>، وقد ذكرت المصادر الكثير من القصور والدور الكبيرة التي كانت ملكا لبعض رجال البصرة البارزين، كما كان عدد من الأفراد يمتلك كل منهم أكثر من دار متفرقة في عدة أماكن.

أما عن شوارع البصرة ودروبها بعد اتساع عمراتها، فيكفي أن تذكر شارع المربد الذي يعد العمود الفقري للمدينة، لأنه يشطرها إلى جانبين شمالي وجنوبي، فقد كان عرضه ستين ذراعا (حوالي ثلاثين مترا)، ويمتد من سوق المربد الذي يقع غرب المدينة إلى مدينة الرزق أو دار الرزق الواقعة شرق المدينة، وقد أورد عريب القرطبي وصفا مفصلا لهذا الشارع في سياق حديثه عن هجوم القرامطة على البصرة سنة 311هـ/923م<sup>(٣)</sup>، أما الدروب والمسالك الفرعية فهي كثيرة العدد حتى قيل إنه كان من الصعب التجول في دروب البصرة دون دليل، وكانت أسماء هذه الدروب تعكس طبيعة الحياة في المدينة فهناك سكة العطارين وسكة القصارين وسكة الذباحين، وهي تشير إلى الحرف وربما إلى الأسواق المنسوبة إلى هذه الحرف، وهناك تسميات لسكك يغلب عليها الطابع القبلي أو أنها تحمل أسماء أشخاص متنفذين كسكة ابن سمرة وسكة قريش، وهناك سكة الموالي ضمن محلة الموالي وسكة البخارية، وهي إشارات إلى العناصر غير العربية التي استوطنت البصرة، كما أن هناك سكك ذكرت في المدينة مسماة بأسماء أشخاص لا تعرف هويتهم أو انتمائهم القبلي<sup>(٤)</sup>، وعلى العموم فإن هذه السكك والدروب لم تكن مبلطة، لكن الإهتمام بنظافتها كان قائما على ما يبدو، فيذكر أن زياد أنشأ في البصرة مصلحة مختصة مسؤوليتها رفع الأربال من دروب المدينة<sup>(٥)</sup>، أما الأسواق فسوف

(1) التبصر بالتجارة نشره حسن حسني عبد الوهاب، ط 2، (القاهرة 1935) ص 4.

(2) الطبري: ج 5 ص 485

(3) عريب القرطبي: صلة تاريخ الطبري (القاهرة 1939) ص 76

(4) صالح العلي: خطط البصرة ص 53

(5) هشام جعيط: الكوفة ص 320

نتناولها مفصلاً ضمن حديثنا عن تطور الحياة الاقتصادية لصلتها المباشرة بالنشاط التجاري.

لقد توسعت البصرة وزاد عمرانها وبلغ أوجه في القرنين الثاني والثالث للهجرة، نتيجة تحول نشاط الموالي القديمة المجاورة لها، وصارت مركزاً إدارياً لمقاطعات واسعة غنية تقدم للدولة العباسية سنوياً مبالغ كبيرة ساعدت على بناء اقتصادها، فوصل عمران البصرة إلى السواحل الشمالية للخليج العربي نفسه، حيث اعتبرت الأبله وعبادان أشبه بضواح للبصرة أو أقساماً تلتصق بها التصاقاً إدارياً مباشراً<sup>(1)</sup> وذكرت المصادر أن مساحتها في هذه المرحلة من التطور تمتد، بالإضافة إلى ما تبعها من مغارس إلى عبادان مسافة طولها نيفاً وخمسين فرسخاً<sup>(2)</sup>.

## II- سكان البصرة

### 1- سكان البصرة قبل الفتح

المنطقة التي أنشئت فيها البصرة كانت معروفة منذ القدم بوظيفتها التجارية، وبحكم هذه الوظيفة، فقد سكنها وعلى مر السنين أناس تختلف لغاتهم وتبائن ألوانهم وطباعهم وأديانهم ومهنهم وعاداتهم، كما أتاحت هذه الوظيفة لسكانها أن يتنقلوا بين الأقطار فيتصلوا بشتى الثقافات، لذلك كان مجتمع البصرة فيه نصيب كبير من التعقيد والتنوع قبل الإسلام وبعده، وأصبح ملتقى النزعات المتعددة والثقافات المختلفة، فتشكلت العقلية البصرية على نحو فريد تجمع بين سعة الأفق وشدة التطلع وحرية الرأي وحب المنافسة والمغالبة، وكان ذلك واحداً من أسباب نهوضها وازدهارها في المراحل اللاحقة.

إن السكان الذين استوطنوا البصرة مع انطلاق حركة الفتح الإسلامي وشكلوا الأغلبية المطلقة فيها، عرب نعرف تحديداً من أين

(1) المقدسي ص 114

(2) الأصبهري كتاب الأقاليم، نشر د. مولير كوتا (1939) طبع أوفسيت المثنى بغداد ص 80



جاءوا... ولماذا، وفي أي مكان استقروا وكم كان عددهم تقريبا، ثم انضاف إليهم بمرور الأيام مجموعات من عناصر غير عربية جاءت بهم ظروف إقتصادية أو سياسية، وأصبحوا مع الزمن جزءا من حياة المدينة وأنشطتها المختلفة، ولكن من هم سكان هذه المنطقة قبل ذلك التاريخ، وما هي أصولهم؟ ولماذا استقروا فيها؟ وما هو أثرهم في حياة المدينة وتطورها؟

من دون شك إن تاريخ البصرة المدينة العظيمة في العصر الوسيط ابتدأ مع الإسلام، وتحديدًا مع فتح العراق وهجرة القبائل العربية المقاتلة إلى هذه المنطقة، إلا أن هذا الإقليم كان قد أتيح له منذ القدم ما يتاح لمثله من الأقاليم التي تقع في طريق التجارة البحرية وتشارك في الأعمال التجارية الواسعة، أن يكون ملتقى الأجناس الكثيرة والعقليات المختلفة، ذلك أن موقعه القريب من الخليج العربي، وفيه الأبله، الميناء البحري المشهور آنذاك، جعله مهبطًا ليضم عناصر من أمم شتى عن طريق الإبحار والإتجار، فضلا عن أهله الأصليين.

**أ- الآراميون:** تذكر المصادر أن العنصر القومي الأساسي في المنطقة كان من أصل آرامي، وكان الآراميون يشكلون قسما كبيرا من أهل السواد الذين يطلق عليهم الكتاب العرب إسم النبط أو النبطيين<sup>(1)</sup>، وعادة ما يستعمل لفظ (النبط) في المصادر للإشارة إلى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق، وهم سكان البطائح<sup>(2)</sup>، أو سكان القرى بشكل عام في الأقسام الجنوبية من العراق<sup>(3)</sup>، ويرى الكثير من الكتاب العرب أن هؤلاء كانوا عربا<sup>(4)</sup>، ولعلنا نجد في العبارة التي قالها عبد المسيح بن عمرو -من أهل الحيرة- لخالد بن الوليد حين سأله أعرب أنتم أم نبط؟ قال: "نحن

(1) المسعودي: التنبيه والإشراف ص161.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 108، عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري

(بيروت 1974) ص31.

(3) ابن خلدون: المقدمة ص176، الدوري المرجع السابق ص32.

(4) المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص129، ابن الأثير، الكامل (المطبعة الأزهرية 1301 هـ) ج 1 ص149، جواد

علي: تاريخ العرب قبل الإسلام (طبعة المجمع العلمي العراقي) ج 2 ص64-79.

عرب استتبطننا ونبت استعربنا" (١)، خير جواب لمن يريد معرفة أصل هؤلاء القوم الذين كانوا يشكلون جزءاً من المجتمع البصري قبل الإسلام.

**ب- العرب:** أما عرب شبه الجزيرة فقد كان لهم وجود قديم في المنطقة، وكانت محاولاتهم للتسلل من موطنهم الأصلي إلى المناطق الخصبة المجاورة مستمرة في كل العصور، خاصة إلى بلاد وادي الرافدين، وربما أشارت المصادر إلى وجود عربي قديم جداً في العراق يمتد إلى نحو ثمانية قرون قبل ميلاد المسيح، فيزعم الطبري: أن ثمة قبائل من أولاد معد بن عدنان حين ضاق بهم العيش في تهامة والحجاز نزحوا إلى بابل، فابتنى لهم نبختصر حيرا (معسكرا)، وحبسهم فيه ثم أنزلهم السواد فابتنوا الأنبار شمالي الحيرة، ثم انتشروا في منطقة الأبله، وظلوا هناك حتى قدمها تبع الحميري وخلف معهم الضعفاء من قومه، ولما خرج وعاد إليهم، أقرهم على حالتهم وتركهم وفيهم، لحيان وجعفي وطيء وكلب وتميم (٢). من جانب آخر كانت هناك صلات قائمة بين البصرة وعرب عمان والبحرين، ففي عهد سترابون (64 ق.م - 25م)، كانت البحرين وما جاورها مستعمرة نبطية، كما يقرر هو ذلك، ثم نرى بعد ذلك بليون PLIN (23-79م) يشير إلى أن هذا الإقليم كان خاضعاً لبعض القبائل العربية المجاورة له، وكذلك نجد الأمر في أيام أردشير في القرن الثالث حين أخضع لسلطانه مملكة ميسان فقد كان عرب عمان هم الذين يحكمونها إنذاك (٣).

واعتباراً من القرن الثالث الميلادي بدأنا نسمع عن وجود قبائل عربية عديدة في سواد العراق، وفي إقليم الجزيرة الفراتية (٤)، كان فيهم من تميم وبكر وعبد القيس وغيرها قبائل قوية، وقد سكن بعضها، إقليم البصرة ومنطقة الأبله (٥)، ويبدو أن بعض هذه القبائل لم تكن علاقاتها جيدة

(١) الطبري ج 3 ص 344، المسعودي: مروج الذهب ج 1 ص 218.

(٢) الطبري: ج 1 ص 558.

(٣) CHRISTENSEN: l'Iran sous les sassanides (Copenhagen 1936) P. 82

- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، الطبعة الثانية (دار المعارف مصر 1969) ص 24.

(٤) البكري: معجم ما استعجم تحقيق مصطفى السقا، (القاهرة 1945) ج 1 ص 69-71 المسعودي، مروج الذهب

ج 1 ص 279، التتبع والإشراف ص 205.

(٥) الطبري: ج 2 ص 206.

بالدولة الساسانية، وكانت تقوم بين فترة وأخرى بشن الغارات على الحاميات الفارسية في المنطقة ثم اتخذت هذه الغارات شكلا منظما، خاصة بعد النجاح الكبير الذي أحرزه بنو بكر بن وائل في موقعة ذي قار (حوالي عام 611م)، حين هزموا القوات الساسانية (1). وكان الفرس قبل ذلك قد لجأوا إلى المصانعة والمهادنة مع هذه القبائل لتفادي شر هذه الهجمات المتتالية عليهم، وتعاملوا مع كبرى القبائل إلى جوارهم وهي قبيلة بكر وعينوا رئيسها حاكما على منطقة الأبله (2)، وكانت فروع من هذه القبيلة قد امتدت من أقاصي طريق الخليج العربي حتى أرض الجزيرة وسكنت الحوض الأعلى لنهر دجلة، ونسبت إليها تلك الجهات وصارت تعرف باسم (ديار بكر)، وهذه الجهات هي مركز الهلال الخصيب الذي يصل بين الخليج العربي والبحر المتوسط، مما يعني أن هذه القبائل كانت تحسن إبتقاء أماكن استقرارها على امتداد طرق التجارة وأسواقها (3).

ومن الهجرات العربية الكبيرة في هذه الفترة -القرن الثالث-، تلك التي توجهت من جزيرة العرب إلى سواحل الخليج العربي وغدت المحور الذي دارت عليه مظاهر التجارة والملاحة عشية ظهور الإسلام، فقد انتشرت قبائل الأزدي حول هذه السواحل وعند منافذ الخليج، واكتسبت تلك الهجرة أهمية خاصة لأن جماعات منها جاءت إلى الخليج وهي تدرك أهميته في ميدان التجارة، إذ ترجع أصولها إلى قبائل اليمن، وقد غادرت بلادها بعد اضطراب أوضاعها السياسية والإقتصادية عقب خراب سد مأرب (4)، وكانت هذه القبائل ذات خبرة طويلة بشؤون التجارة والملاحة في موطنها الأول، وقد عبرت بعض من عشائر الأزدي هذه من مناطق تواجدها

(1) Cambridge Mediaeval History, Voll, II, P.329.

(2) الطبري: ج2 ص206، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "بكر"، مجلد الرابع، ص41-46

مقال (شليفير) Schleifer

(3) ابن حوقل: صورة الأرض ص189، سليمان العسكري: التجارة والملاحة في الخليج العربي (القاهرة 1972)

ص22.

(4) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج1 ص548، أنظر أيضا:

R.DAGHFOUS ~~le~~ Yaman Islamique des origines jusqu'a l'avenement des dynasties

autonomes, (Tunis 1995), I.P.P.90-95

في البحرين وعمان إلى الجانب الشرقي من الخليج العربي وكونت لها هناك كيانا بشريا واقتصاديا وسياسيا،<sup>(١)</sup> وتوجه بعضها الآخر إلى منافذ الخليج الشمالية حيث مصب دجلة والفرات واتخذت من منطقة البصرة ومرفأ الأبله مستقرا لها<sup>(٢)</sup> وبذلك أصبح لهذه القبائل وجود مميز في المنطقة، مقترن بالنشاط التجاري البحري، وقد شارك هؤلاء العرب في الأعمال التجارية البحرية أيام سيادة البحرية الفارسية في العهد الساساني<sup>(٣)</sup>، وفي مصادرنا العربية إشارة إلى تلك المشاركة، فقد ذكر ياقوت في معجم البلدان عن أبي عبيدة أنه قال في تفسير بيت للكميت:

فأما الأزد أزد أبي سعيد

فأكره أن أسميها المزونا

"أراد بالمزون الملاحين وكان أردشير بن بابك جعل الأزد ملاحين بشحر عمان قبل الإسلام..." وقد ظل أزد عمان يعرفون بهذا الوصف بعد الإسلام.

ونجحت بعض القبائل العربية القوية في إقامة كيانات سياسية مهمة في العراق<sup>(٤)</sup>، أهمها وأكثرها صلة بإقليم البصرة والخليج العربي، إمارة الحيرة التي تعرف أيضا بإسم إمارة اللخمين نسبة إلى مؤسسها عمر بن عدي بن مضر بن ربيعة بن لخم، وقد اتخذت قبائل هذه الإمارة مقرا لها في معسكر دائم غربي الفرات عرف باسم (الحيرة)، وهي كلمة مشتقة من اللفظ الآرامي "حرتا" ومعناه المعسكر<sup>(٥)</sup>، وأصبحت الحيرة مملكة ذات شأن في القرن الرابع الميلادي، واستمرت كذلك في القرنين الخامس

(١) جواد علي: المفصل ج 2 ص 633.

(٢) نفس المصدر ج 1 ص 31-32.

(٣) انظر: طه الحاجري: المرجع السابق ص 25.

(٤) ظهرت في إقليم الجزيرة الفراتية إمارة الحضر التي حكمها سلالة عربية مدة ثلاثة قرون، وكان أول حكامها

أميرا عربيا اسمه "سنطروق"، ورد ذكره في نقوش اكتشفت هناك نصت على أن أباه يدعى (نصر) وأن لقبه

(ملك العرب)، سليمان الصايغ: الحضر (بغداد بدون تاريخ) ص 30، طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات ج 1

ص 608، وأستنادا إلى الطبري فإن حكام هذه الدولة كانوا من قضاة، وقد استمرت مملكة الحضر حتى حكم

سابور الأول (241-272م) الطبري ج 2 ص 47-48.

(٥) فليب حتي: تاريخ العرب ج 1 ص 107-108. دائرة المعارف الإسلامية، مادة "الحيرة" مجلد 8، ص 161-

والسادس، وتمكنت من عقد تحالفات وصلات مع القبائل العربية في العراق وشرق شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما علا نجمها وازدهرت في قلب الهلال الخصيب بسبب امتداد سلطانها على طريق الخليج التجاري، فكانت أراضيها أيام ازدهارها تمتد من غرب الفرات، ابتداء من مجراه الأوسط إلى منتصف الخليج العربي<sup>(١)</sup>، وكان حاكم البحرين يعين من قبل أمرائها، وكذلك شيوخ القبائل الضاربة على طريق الخليج العربي<sup>(٢)</sup>، وقد أشار المؤرخون المسلمون إلى ازدهار تجارة الخليج في عهد هذه الإمارة، وكان تجارها يترددون على مرفأ الأبله، يقول المسعودي "وكان الفرات ينتهي إلى بلاد الحيرة، ونهرها بين إلى هذا الوقت وهو يعرف بالعتيق .. فيصب في البحر الحبشي (الخليج العربي) وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت تقوم هناك سفن الصين والهند، ترد إلى ملوك الحيرة"<sup>(٣)</sup>.

ومن مظاهر الإندفاع العربي من البادية إلى السواد قبل الإسلام قصة (بنو العم)<sup>(٤)</sup> الذين استوطنوا في إقليم البصرة، وأخذتهم حياة الإستقرار فيها لأسباب تجارية، وكانوا يعملون في الملاحة، ثم انتقلوا للإقامة في الأهواز، فكانوا دليلاً قائماً بعد الإسلام يشير إلى مكانة العنصر العربي قبل الإسلام في هذا الإقليم<sup>(٥)</sup>، ويذكرهم جرير في بعض مناقضاته للفرزدق فيقول:

ما للفرزدق من عز يلوذ به      إلا بنو العم في أيديهم الخشب  
سيروا بني العم فالأهواز منزلكم      ونهر تيري ولم تعرفكم العرب<sup>(٦)</sup>

(١) ميروك نافع: عصر ما قبل الإسلام (القاهرة 1948 م) ص 134.

(٢) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام (بيروت 1966 م) ص 283، أنظر: نينا فكتور يوغوليفسكا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين هاشم، (الكويت د.ت) ص 81 وما بعدها.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ط 4 (القاهرة 1964) ج 1 ص 103.

(٤) وهم من تنوخ من قدامى النصارى، تحالفوا مع حظلة من تميم بعد الإسلام والنسب إليهم عمي وبلعمي، وقد لعبوا دوراً مهماً في حياة البصرة السياسية والاقتصادية بعد تأسيسها، أنظر: ماسنيون: خطط البصرة ص 21-22.

(٥) الحاجري، المرجع السابق ص 26.

(٦) أنظر: ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ج 1 ص 152، 154.

من جانب آخر لم يكن هذا الوجود العربي المتميز في المنطقة موضع ارتياح من قبل الدولة الفارسية، فلجأت في مناسبات كثيرة إلى سياسة القسوة والبطش في ضرب القبائل العربية (1)، كما مارس الحكام الفرس أسلوباً آخر لإضعافها وتفتيت قوتها وهو أسلوب التهجير لهذه القبائل أو لأجزاء منها من مواطن سكناها إلى مناطق أخرى وبيئات لم يتعودوا السكن فيها، فقد قام سابور بعمليات واسعة لتهجير القبائل العربية من منازلها إلى منازل أخرى عقاباً لها وضمناً لعدم قيامها بغارات على الحدود، وهي سياسة قديمة معروفة مارسها الحكومات في معاقبة القبائل (2)، فيذكر الطبري أن سابور فرق القبائل العربية، فأسكن بعض قبائل تغلب وبكر بن وائل وعبد القيس كرمان وتوج والأهواز (3)، وحول تهجير هذه القبائل يذكر الغياثي (4): أن سابور فرقها إلى أربع طوائف، وكل طائفة أسكنها في مكان، فأنفذ بني تغلب إلى جانب البحرين وبني عبد القيس إلى هجر واليمامة، وبكر بن وائل إلى جانب اليمن وعمان وحدود كرمان، وبني حنظلة إلى البصرة، وهذا الاختلاف بين روايتي الطبري والغياثي ربما كان سببه أن سابور ربما عمد إلى تهجير أبناء القبيلة الواحدة إلى أكثر من مكان إمعاناً في تفتيت وحدتها وإضعافها، ومع ذلك فقد ظل وجود هذه القبائل كبيراً ومؤثراً حتى ظهور الإسلام وفتح العراق.

**ج- الأجناس الأخرى:** إضافة إلى الآراميين والعرب عرفت المنطقة أجناساً أخرى من غير العرب أقاموا فيها وانخرطوا في نشاطها التجاري البحري، منهم اليونانيون الذين تكاثروا في إقليم البطائح وفي الأبله بشكل ملحوظ، لذلك نسبت إليهم الأبله وكانت تسمى (أبولوجوس)، وحظيت باهتمامهم منذ

(1) أشهر ما تذكره الأخبار عن هذه السياسة ما فعله سابور ذي الأكاف مع العرب، فيقال أنه نكل ببعض القبائل العربية وخلع أكافهم ولذلك ستمه العرب بذئ الأكاف، الطبري ج 2 ص 67، المسعودي مروج الذهب ج 1 ص 279-280 ويرى كرتستن أن هذه التسمية صحيحة، ولا يستبعد من خلع سابور لأكاف العرب لأن هذا النوع من التعذيب القاسي المولم كان معروفاً في تلك الأيام، (إيران في عهد الساسانيين ص 225)

(2) حواد علي: المفصل ج 2 ص 640

(3) الطبري: ج 2 ص 61

(4) الغياث، عبد الله بن فتح الله البغدادي، التاريخ الغياثي. مخطوطه في مكتبة المجمع العلمي العراقي، (رقم 567)

عهد الإسكندر لأنها كانت أهم أسواقهم، كما كانت من مرافئهم البحرية المهمة، ويذكر بلين PLINE أن الإسكندر حين بنى مدينة خراسين (1)، أنزل فيها هؤلاء الذين لم يعودوا قادرين على حمل السلاح، ولعل هؤلاء كانوا هم نواة الجالية اليونانية التي أخذت تكبر منذ ذلك العهد (2)، وبعد موت الإسكندر كانت منطقة البصرة عامرة باليونانيين الذين يشتغلون بالملاحة والتجارة.

ومن الأجناس التي سكنت المنطقة وصارت لها مكانة معروفة فيها قبل الإسلام، الهنود، ففي أخبار الفتوح أن المسلمين حين نزلوا البصرة كانت تسمى أرض الهند - كما أشرنا - وما من شك أنها لم تكن كذلك إلا لكثرة عدد الهنود الذين كانوا فيها، فضلا عن صلاتها التجارية الواسعة مع بلاد وأقاليم المحيط الهندي، فالهند من أعظم الأسواق، ومن أهم مراكز التجارة البحرية في الشرق، فلا غرابة إذا كانت صلة هذه المنطقة بها قديمة وقوية، كما هي الحال التي صارت عليه بعد الإسلام وتأسيس البصرة، ويبدو أن هؤلاء الهنود كانوا يفدون على المنطقة في تجارة ثم يستقرون فيها، ومن أشهر العناصر الهندية التي كانت في المنطقة عند وصول المسلمين هم السياجة، وكان الأصل في هؤلاء القيام ببعض الأعمال البحرية (3)، فالصفة التجارية البحرية هي التي جذبتهم إلى المنطقة، حتى صاروا جزءا من الشعب البصري، وصارت لهم مكانة خاصة بعد الفتح بقليل، فقد وكل إليهم حراسة بيت المال والسجن ودار

(1) أوخراكس: وهي مدينة المحمرة حاليا، تقع على الضفة الشرقية لشط العرب، يونانية في الأصل، أنشأها الإسكندر ثم أعاد تأسيسها أحد الملوك السلوقيين، وفي فترة متأخرة أسسها من جديد ملك يدعى سباسينوس Spasinus هو ملك العرب المجاورين ويقول بلين أن خراكس كانت في عصره (قبل 77 م) مدينة في بلاد العرب على حدود باريثيا، وقد أسست هي والأبله في وقت واحد، وكان سكان هذين الميناءين التوأمين مزيجاً من العرب والكلدانيين والفرس، حوراني، جورج فضلوا العرب والملاحة في المحيط الهندي (القاهرة 1958) ص 46-47.

(2) الحاجري، المرجع السابق ص 23.

(3) تاج العروس مادة (س ب ج)، ويرى الأب أنستاس ماري الكرمللي أن كلمة سياجة جمع سيجي نسبة إلى سيج، وهي لغة في (زايح) أميلت ألفها وقلبت زايها سينا، وهي جزيرة جارة الحالية وما يجاورها، أغلاط اللغويين الأقدمين ص 162-163.

## الإمارة (١).

والى جانب هؤلاء كانت تقيم في هذه المنطقة منذ زمن بعيد طوائف من الإيرانيين من أهل الأقاليم المتاخمة لإقليم البصرة كفارس والأهواز، وكان أغلب هؤلاء يشتغلون في الملاحة والتجارة، كما عرف هذا الإقليم مجموعات من أهل الحبشة والزنج، سكان المناطق الواقعة في شرق إفريقيا، فقد كان للحبشة أسطولها الخاص بها (٢)، وكانت هذه المناطق ترتبط بصلات تجارية قديمة مع مراكز التجارة في الخليج العربي ومنها إقليم البصرة.

## 2- سكان البصرة بعد الفتح

أ- السكان العرب : إن ظهور الأمصار الإسلامية الأولى وبخاصة الكوفة والبصرة، ارتبط بمفهوم مركزي في الإسلام هو مفهوم الهجرة، ذلك المفهوم الذي اتسع معناه -أو هكذا أريد له- منذ ذلك الحدث الذي كان سببا في تحرير الإسلام من ضغط قريش، وانتشاره على مدى أرحب وأكثر أمنا، ونعني به هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى يثرب. لقد كانت هجرة المسلمين الأوائل والتحاقهم بالرسول في حينها تعبيراً عن أقصى درجات الإيمان والاستعداد الكامل للجهاد والانسلاخ عن واقع قديم رفضه الدين الجديد، فاستحق هؤلاء المهاجرون مكانة خاصة في الإسلام، ثم اتخذ مفهوم الهجرة بعداً معنوياً، وصار شرفاً يحمله كل مسلم مستعد للتضحية حتى وإن لم يهاجر. ومع انطلاق حركة الفتوح الإسلامية الكبرى في عهد الخليفة عمر وجد الإسلام نفسه من جديد مرتبطاً بالهجرة، وعاد إلى ذلك المفهوم فوسع إطاره، وأصبحت الهجرة باتجاه العراق والشام لنشر رسالة السماء ومحاربة الكفر، وكان امتياز هؤلاء المهاجرين (الديوي) هو تمتعهم بالعطاء دون غيرهم

(١) صالح العلي، تنظيمات ص 84.

(٢) CHRISTENSEN, op.cit, p. 123.



من المسلمين - باستثناء النخبة في المدينة - كما كان مقدار هذا العطء يتسلسل حسب أسبقية الالتحاق بهذه المنطوق (١)، لذلك سارعت أعداد هائلة من عرب شبه الجزيرة العربية إلى الشام والعراق لتبدأ أكبر عملية هجرة، هادفة، ومنظمة (ومسلحة) في التاريخ، غيرت وجه العالم آنذاك فمحت إحدى أكبر امبراطوريتين من الوجود وإلى الأبد، وحجمت الأخرى، ونشرت الإسلام في الأصقاع البعيدة خلال فترة زمنية وجيزة، وكان من أبرز وأهم نتائجها الأخرى ظهور الكوفة والبصرة كأول مدن إسلامية خارج شبه جزيرة العرب، ولم تكن هاتان المدينتان مجرد محطات استقرار بشري وعمراني فقط بل لعبتا أدوارا سياسية واقتصادية وعسكرية وإدارية هامة جدا إلى درجة يمكن القول معها بأن التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول ومطلع القرن الثاني للهجرة يكاد يكون هو تاريخ البصرة والكوفة واحداثهما.

إن هذه القبائل التي دفع بها الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية، شكلت الأغلبية المطلقة من سكان البصرة، وهم العرب الفاتحون الذين أصبحوا سادة المجتمع المتمتعين بكل الإمتيازات. وقد كان لطبيعة التركيب السكاني في المدينة أثره الكبير على حياتها القادمة، وظروفها ومراحل تطورها، فمعظم من استقروا في المدينة كانوا من قبائل شرق جزيرة العرب مثل تميم وبكر وعبد القيس ممن ثاروا على سلطة الدولة المركزية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا يفسر استمرار الكثير منهم في تحدي الجهود التي بذلت لتخفيف حدة التنافس القبلي داخل المدينة، وقد ظل ذلك الإحتكاك القبلي يشكل خطرا كامنا يهدد حياة المدينة خاصة في السنوات الأولى من تأسيسها (٢)، وهي تعيش تلك التجربة المثيرة على طريق الاستقرار والتمدن، إلا أن تأثير الإسلام على العلاقات بين القبائل في هذه المرحلة كان فعلا وبعيد المدى، وقد تمثل ذلك التأثير في

(١) هشام جعيط، الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل (بيروت 1992)

ص 49-50.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين: ج 2 ص 233.

## النواحي التالية:

\* كانت حروب الردة فرصة لدولة المدينة لتأكيد سلطانها على القبائل المتمردة وإخضاعها لنفوذها المركزي، فخلقت بذلك وحدة - وإن كانت شكلية ومؤقتة - بين هذه القبائل، كانت الخطوة الأولى على طريق التحول الاجتماعي.

\* بالرغم من أن معظم أفراد هذه القبائل لم يكونوا ملمين بالإماما دقيقا بتفاصيل دينهم الجديد، وكان تنظيم الجيش يقوم على أساس التشكيل القبلي، إلا أن انخراطهم في جيش واحد يحارب باسم الإسلام، ويخضع لأوامر مركزية متمثلة في سلطة الخليفة أو من ينوب عنه من القادة العسكريين كان في حد ذاته مفهوما ثوريا جديدا ترك بصماته على علاقاتهم الاجتماعية الجديدة.

\* كان لمشاعر الحماسة القوية التي استقطبت عواطف العرب، ودفعتهم لذلك حصون الإمبراطورية الساسانية، مفعولها الكبير في حمل هذه القبائل على تناسي خلافاتها لبعض الوقت.

\* إن كل قبيلة من هذه القبائل أصبحت جزءا من جيش يحارب لأهداف وغايات شمولية عامة فيها بالنتيجة مصلحة الجماعة الإسلامية بعد أن كانت في الماضي القريب تحارب لأهداف محدودة وخاصة، وبذلك أخضعت هذه القبائل نفسها تدريجيا لسلطة الدولة المركزية وأصبحت جزءا منها.

إن هذه المتغيرات الجديدة التي طرأت على واقع القبائل المهاجرة لم تؤد إلى تلاشي القبيلة أو إضعاف تماسكها، ولكنها نجحت إلى حد بعيد في تطويرها وإظهارها إلى الوجود في إطار إسلامي جديد، يحسب للسلطة المركزية حسابها كقوة للربط والتوحيد، وقوة للحسم والفصل.

تم تحديد سكن المقاتلين العرب الذين استوطنوا البصرة منذ تأسيسها وفقاً للنظام القبلي، وذلك مراعاة لما كانت عليه طبيعة النظم السائدة في شبه جزيرة العرب والتي كانت قائمة على أساس القبيلة، فقسمت البصرة إلى خطط سكنت كلا منها قبيلة وسميت كل خطة باسم القبيلة التي سكنتها، وقد احتفظت هذه الخطط بأسمائها لمدة طويلة، ويبدو أنه كان هناك نوع من التوازن أو المطابقة بين الخطة والقبيلة في بداية التأسيس، غير أن هذا التوازن اختل بمرور السنين بسبب التزايد المتسارع لعدد السكان نتيجة الهجرة الوافدة، وينسب إلى الوالي زياد بن أبيه (1) التنظيمات السكانية الكبرى في المدينة، فهو الذي جعل البصرة خمسة أحماس يضم كل منها عدداً من العشائر، وهذه الأحماس هي (2):

- أهل العالية: وهم أهل الحجاز، من الأسر الإدارية التي نزحت إلى البصرة قبل سنة 40 هـ، وكان بعضهم من أقدم مقاتلة البصرة، وبرز فيهم رجال كانت لهم مكانة متميزة في المدينة، وخاصة التقفيين الذين كانت تربطهم صلة نسب بأبرز ولاة البصرة في القرن الأول (زياد والحجاج) وقد ساعدت هذه الصلة على توطيد مكانتهم، ومنهم العباسيون الذين سكنوا البصرة منذ السنوات الأولى لتأسيسها وتعزز شأنهم فيها، وهم الذين نظموا الري في البصرة، وامتد نفوذهم إلى صحار (عمان) ووصلوا إلى الهند وسيطروا على سندان وملتان (3).

- الأزد: كانت هذه القبائل قد سيطرت منذ زمن بعيد في البصرة ومن هؤلاء أزد عمان، وقد طبعوا البصرة بطابعهم (4)، الخاص إذ اشتهر الأزد بخبرتهم الواسعة في ميدان التجارة والملاحة وفيهم يقول الشاعر:

(1) نسبت هذه التقسيمات إلى عهد زياد مع أن مصطلح الخمس والأحماس باعتبارها وحدات تنظيمية عسكرية

وجبائية ظهرت لأول مرة قبل واقعة صفين (سنة 37 هـ)، الطبري ج5 ص426.

(2) سنشير فقط ودون إطالة إلى هذه الأحماس من حيث تركيبها السكاني، وبقدر حاجتنا للإشارة إليها في هذا البحث، ذلك أنها بحثت مفصلاً من قبل الأستاذ صالح العلي، انظر خطط البصرة ص49-104. وكذلك:

التنظيمات ص52 وما بعدها.

(3) ماسنيون: خطط البصرة ص16-17، صالح العلي: خطط البصرة ص81.

(4) الطبري ج5 ص237، ماسنيون ص18.

إذا أزدية ولدت غلاما فبشرها بملاح مجيد

- **بكر بن وائل:** وهم مجموعة ربعية نشيطة، كانوا حراسا لطريق الحج من البصرة إلى مكة، كما كانوا يقومون بحراسة الطرق والقوافل التجارية من شبه جزيرة العرب حتى خراسان وبلاد الترك<sup>(1)</sup>.

- **تميم:** إحدى القبائل الكبرى التي هاجرت إلى البصرة منذ بداية تأسيسها وظهر منها عدد من الرجال الذين شغلوا مناصب إدارية مهمة، وهي تلي الأزد من حيث العدد، ولكنها من الناحية الاجتماعية منقسمة انقساماً عميقاً بين دارم وحنظلة، وقبيلة دارم التي منها الأحنف بن قيس الشخصية البصرية المعروفة ذات ميل أرسقراطي اتخذت من الفرس الأساورة موالي، أما حنظلة فقد اتخذت أتباعها من الطبقات الدنيا كالسيابجة والزط<sup>(2)</sup>.

- **عبد القيس:** وهي أقل القبائل عدداً، والمعلومات عن خططها وعشائرها في البصرة قليلة جداً<sup>(3)</sup>، ويبدو أن أفراد هذه القبيلة كانوا يتدخلون في السكن مع غيرهم من القبائل، وهذه الجماعة الربعية كانت في الأصل جماعة بحرية جاءت من البحرين، وقد تم لها السيطرة على الخليج العربي<sup>(4)</sup> بحكم خبرتها الواسعة في ميدان الملاحة والتجارة البحرية.

واستناداً إلى أصول هذه القبائل وخلفياتها البيئية والثقافية يمكننا القول أنه وجد في البصرة مجتمع عربي ينتمي إلى عالمين أو نمطين حضاريين مختلفين نسبياً هما:

(1) ماسنيون: خطط البصرة ص 18.

(2) الجاحظ: الحيوان ج 2 ص 333، ماسنيون خطط ص 19.

(3) صالح العلي: خطط ص 87.

(4) ماسنيون: خطط ص 23.

**الأول:** هو عالم سكان المدن والمناطق الأقل تشبعا بروح البداوة، وقد شكل هؤلاء القوة الفاعلة والمؤثرة في حياة المدينة، والتحكم بمجريات الأحداث فيها، وتمثل عناصر هذا العالم:

\* العشائر التي كانت ديارها في الحجاز (أهل العالية)، من سكان المدينة (العاصمة)، ومن أهل تقيف والطائف، ومنهم كانت الجماعة السياسية الحاكمة والقادة والموظفون وأصحاب المناصب الإدارية في البصرة، وكانت هذه المجاميع رغم قلة عددها تمسك بزمام الأمور، ومنهم كان الولاة الذين لعبوا الدور البارز على صعيد تمصير المدينة، وظهور التحولات الكبرى في المراحل الأولى من تاريخها.

\* العشائر التي كانت ديارها في الأطراف الشرقية من شبه الجزيرة وسواحل الخليج العربي (بكر، عبد القيس، حنيفة، أزدعمان)، وكان أغلب هؤلاء يمارسون الزراعة والملاحة، ومنهم من القبائل التي ترجع أصولها إلى اليمن، ورثة الحضارات المتكاملة التي عرفت نظام الدولة، ونظم الري المتطورة، والنشاط التجاري الواسع برا وبحرا، وقد أسهم استقرار هذه المجموعات في البصرة في نمو النشاط التجاري والملاحي مع بلدان المحيط الهندي والشرق الأقصى<sup>(1)</sup>.

\* أما النمط الثقافي الثاني في المدينة فقد كان متمثلا في القبائل التي جاءت من أواسط نجد (تميم وعامر وأسد) فضلا عن العشائر الأخرى والحلفاء، وهم قبائل رحل، رعاة وبدو من الطراز الأول، وقد كانت لهم مساهمة فعالة في الحوادث الكبيرة في البصرة، كما شغلت المدينة ولعقود طويلة بمشاكلهم ونزاعاتهم الداخلية.

ب- **العناصر غير العربية:** إن رغبة العرب في الحفاظ على شخصيتهم بابتعادهم عن الإختلاط بالشعوب التي أخضعوها لم تكن دائما ممكنة التحقيق على أرض الواقع، خاصة في مدينة كالبصرة، فقد تؤكد

للمستوطنين الجدد من العرب ضرورة الإستعانة بكل أصناف الحرفيين والمهنيين الذين لا يمكن أن تستقيم حياة المدينة بدونهم وهي تعيش مرحلة النمو والتطور السريع، فقد كانت هناك حاجة ماسة إلى البنائين والعمال الماهرين والفنيين لشق القنوات وتشيد الجسور، وكان هناك توسع مستمر في إستصلاح الأرض، وفي امتلاك الأراضي الزراعية حول البصرة (1)، وفي منح القطائع لرجال الدولة البارزين (2)، إن ذلك أوجد حاجة كبيرة إلى العمال الزراعيين، وليس هناك من سبيل لتوفير هذه الأعداد الكبيرة منهم إلا عن طريق تشجيع هجرة هؤلاء من المناطق المجاورة إلى البصرة. وخلال سني الفتوح الإسلامية في المشرق كان سيل أسرى الحرب والعبيد لا ينقطع عن المدينة، كما كان ميدان النشاط التجاري المتنامي في المدينة يفتح مجالات واسعة لكل ألوان المهارات والمهن، هذا إضافة إلى أن العرب ورثوا الجهاز الإداري الساساني بموظفيه وعماله الذين كان أغلبهم من الفرس. إن كل هؤلاء، من عناصر فارسية مختلفة الأسماء والأصول، وهنود من عالم المحيط الهندي الواسع وزنوج وغيرهم توافدوا على البصرة ومن جهات مختلفة وأقاموا فيها لأسباب إقتصادية، ومع نمو وازدهار البصرة كانت أعداد هذه الجماعات تزداد، وصاروا يشتركون اشتراكا فعليا في حياة البصرة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، حتى صارت كثرتهم مصدر قلق للسلطة خاصة في العصر الأموي الذي كان متشددا في هذا الجانب القومي بالذات، فيذكر أن معاوية بن أبي سفيان دعى الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب وكلاهما من البصرة ليقول لهما "إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان.." وحدثهما أنه ينوي قتل نصفهم، تاركا نصفهم الآخر للقيام على الأسواق وعمارة الطرق، وقد وافق سمرة على خطة معاوية بقتلهم، أما الأحنف بن قيس فقد دافع عنهم وابتغى لهم السلامة، وقد أخذ معاوية برأي الأحنف، ويبدو أنه اكتفى بنقل بعضهم إلى مناطق أخرى (3)، من جانب آخر ضمنت كثرة هؤلاء في

(1) لأن أراضي البصرة عشيرة يحق للمسلمين امتلاكها واستثمارها: الإصطخري، المسالك ص80.

(2) البلاذري: فتوح البلدان ص351، وستناول هذا الموضوع في الفصل الثالث.

(3) العقد الفريد: ج 2 ص260.

المدينة إستمرارية دوران عجلة الحياة الإقتصادية بكل فروعها وأنشطتها دون توقف حتى في أكثر الأوقات اضطراباً، حين كانت القبائل مشغولة في الحروب أو الفتن والمشاكل الداخلية (١).

لقد استفادت هذه المجموعات المختلفة من فرص الحماية التي توفرت لها في فترة مبكرة من تأسيس المدينة، فوضعوا أنفسهم تحت حماية أفراد أو عشائر، متمتعين بالمنافع التي يوفرها لهم الولاء للسيد أو العشيرة. ففي مجتمع مثل مجتمع البصرة قائم على العصبية والتحزب، حيث الغلبة والسيادة للعرب، كان نظام الولاء أنجع السبل لتحقيق ما يصبو إليه غير العربي. وكان اتصال هؤلاء الأجانب بالعرب عن طريق الولاء يتفاوت من حيث الزمن بين الجدة والقدم (٢)، كما يتفاوت في طبيعة العلاقة بين السيد والمولى، فقد ظهر في البصرة، بالإضافة إلى موالى العتاقة وأسرى الحرب، نوع آخر من الموالى الأعاجم الذين سكنوا البصرة بإرادتهم وارتبطوا بصفة الولاء بإحدى العشائر أو بأحد الأفراد بمحض اختيارهم (٣).

وبالإضافة إلى الخدم والرقيق والمولى من الذين اصطحبتهم القبائل العربية معها عندما بدأت تستقر في البصرة، وكانوا من مختلف الأصول والمناشئ، استوطنت البصرة عناصر أجنبية من جنسيات مختلفة يأتي في مقدمتها بعض من القوات الساسانية التي استسلمت للجيش العربي في جبهة البصرة، فقد أسلم في ولاية أبي موسى الأشعري حوالي أربعة آلاف من الأساورة، وكان هؤلاء يشكلون فرقة عسكرية في الجيش الساساني كانت تحارب في الأهواز، وقد أبرم أبو موسى معهم اتفاقاً منحهم فيه نفس حقوق العرب، فأعطيت لهم الخطط، وجعل لهم العطاء والأرزاق، على أن يقاتلوا إلى جانب العرب، وقد حافظوا على وحدتهم حتى دخلوا في تحالف مع قبيلة سعد من تميم (٤)، وهناك من اعتبر أن أصل هؤلاء الأساورة من

(١) عون الشريف قاسم: شعر البصرة في العصر الأموي ط 2 (الخرطوم 1991) ص 53.

(٢) شارل بيلا: المرجع السابق ص 69.

(٣) انظر حول هذا الموضوع: صالح العلي: التنظيمات ص 77 وما بعدها.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص 373.

السند<sup>(١)</sup>، وقد ازداد عددهم بعدئذ بما انظم إليهم من الجنود الساسانيين الهاريين<sup>(٢)</sup>.

وقد تحدثت المصادر عن وجود فئة أجنبية أخرى مهمة في البصرة وهم السيابجة الذين أوكلت إليهم في بعض المراحل مهمات إدارية ومهنية، فقد كلفوا بحراسة بيت المال والسجن ودار الإمارة، ولخبرتهم في مجال البحر والملاحة أخذوا يخدمون بعدئذ على ظهر سفن الأسطول الإسلامي في الخليج العربي<sup>(٣)</sup>، وهناك من اعتبرهم من أصل فارسي<sup>(٤)</sup>، والمرجح أنهم -كما أشرنا- من جزر المحيط الهندي، وتحديدًا من جزيرة الزابج -سومطرة- وهو ما ذهب إليه الأب أنستاس الكرمل<sup>(٥)</sup>، هاجروا إلى الهند، ثم إلى العراق والخليج العربي حيث ظهرُوا قبل الإسلام، ثم استخدمهم الساسانيون كقوة لحماية السفن من غارات القراصنة<sup>(٦)</sup>، وقد جرى تجنيدهم بعد ذلك في الجيش الإيراني وبعد انتصار العرب وتأسيس البصرة، استقر هؤلاء فيها وتحالفوا مع بني حنظلة من تميم<sup>(٧)</sup>.

وهناك قوة أجنبية أخرى هم الزط الذين ترجع أصولهم إلى بلاد السند وكانوا قد استقروا على سواحل الخليج العربي قبل الإسلام، وبعد الفتح دخلوا الإسلام وأسكنهم أبو موسى الأشعري البصرة، وتحالفوا مع بني حنظلة من تميم أيضًا<sup>(٨)</sup>. وكان الحاج بن يوسف الثقفي قد جلب أعدادًا كبيرة أخرى منهم من بلاد السند ومعهم دوابهم وأسكنهم منطقة البطيحة لملائمة هذه البيئة لظروف حياتهم

(١) انظر شارل بيلا: المرجع السابق ص 71.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص 374.

(٣) المصدر نفسه: ص 376.

(٤) صالح العلي: التنظيمات ص 85.

(٥) أغلاط اللغويين الأقدمين: ص 162-163.

(٦) شارل بيلا: المرجع السابق ص 78.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص 374-375.

(٨) المصدر نفسه: ص 374، صالح العلي: التنظيمات ص 85-86، شارل بيلا: المرجع السابق ص 74.



السابقة<sup>(١)</sup>، فغلبوا على البطيحة وتكاثروا فيها، وقد قاموا بعدئذ بحركتهم المعروفة المعادية للسلطة مطلع القرن الثالث الهجري والتي أفلقت المدينة حتى تم القضاء عليها سنة 220 للهجرة<sup>(٢)</sup>، وكان عدد الزط آنذاك (27) ألفاً، منهم (12) ألفاً يحملون السلاح<sup>(٣)</sup>. وقد جرى نقلهم بعد ذلك وتفريقهم إلى جهات مختلفة.

أما البخارية فهم جماعة من أواسط آسيا جلبهم عبيد الله بن زياد وأسكنهم البصرة وأجرى لهم العطاء والأرزاق<sup>(٤)</sup>، وكان عددهم أربعة آلاف وشكلوا وحدة جنسية متميزة في المدينة يسكنون في حي واحد معروف يسمى سكة البخارية<sup>(٥)</sup>، وهناك احتمال كبير أن هؤلاء اختلطوا منذ القرن الثاني للهجرة بالحياة العامة في المدينة وامتزجوا بالألوف من الموالي الإيرانيين الذين نزلوا البصرة في أوقات مختلفة<sup>(٦)</sup>.

وبجانب هذه العناصر، وجدت في البصرة أعداد كبيرة جداً من الزنوج الذين جلبوا كرقيق في أزمنة غير معروفة من سواحل إفريقيا الشرقية، ويبدو أن ذلك كان مرتبطاً بتوسع التجارة الإسلامية الكبرى في المحيط الهندي. وكان يتم الحصول على هؤلاء العبيد من حملات غزو أو يشترون مقابل سلع تافهة ثم ينقلون إلى سقطرة أو عدن وهما نقطتا تمركز هذه التجارة، ينقلون بعدها إما إلى مصر عن طريق البحر الأحمر، أو إلى البصرة عن طريق الخليج العربي<sup>(٧)</sup>، وقد استخدم هؤلاء بكثرة في كسح السباح، وفي حملات استصلاح الأراضي في البصرة، تلك الأرض المعروفة بملحيّتها العالية، وكان هؤلاء يعملون عادة على شكل مجموعات كبيرة تتراوح بين الألف والخمسة آلاف وربما أكثر، وفي منتصف القرن

(١) البلاذري: ص 375.

(٢) الطبري: ج 9 ص 10.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص 371.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص 376-411.

(٥) ابن الفقيه: البلدان ص 191.

(٦) شارل بيلا: المرجع السابق ص 72.

(٧) لومبارد: الجغرافية التاريخية ص 265.

الثالث كان وجود هؤلاء العبيد بأعداد هائلة في البصرة قد أدى إلى حركة مدمرة دامت خمسة عشر عاما (255-270 للهجرة/868-883م)<sup>(١)</sup>، أغرقت المدينة في الفوضى والدمار، ونشرت الذعر والرعب في النفوس وقوضت صرح هذه المدينة المزدهرة - ولنا حديث مفصل عنها في الباب الأخير من هذا البحث -.

### 3- التطور الديموغرافي

لقد نمت الكثافة السكانية في البصرة بسرعة كبيرة من حوالي ألف مقاتل عند تمصيرها سنة 17 للهجرة، إلى حوالي 300 ألف ساكن سنة 50 للهجرة<sup>(٢)</sup>، إلى حوالي نصف مليون نسمة أواخر العصر الأموي<sup>(٣)</sup>، وفي العصر العباسي أصبحت بحدود المليون نسمة<sup>(٤)</sup>.

ويبدو أنه من الصعب تحديد توقيتات زمنية لمجريات هذا التطور على ضوء الأرقام التي تظهر لنا في المصادر كل عشرين سنة تقريبا، وفي سياق تعرضها للأحداث الكبرى والأزمات السياسية والعسكرية، لأن هذه المصادر في الغالب تذكر أعداد المقاتلين فقط دون إشارات إلى السكان الآخرين من النساء والأطفال والعرب غير المسجلين في الديوان والأجانب وغيرهم، وهؤلاء قد زاد عددهم مع توالي السنين لتوفر فرص العمل والأنشطة الاقتصادية المربحة أكثر من الارتباط بعجلة الحرب. ومما يؤكد ذلك أن البصرة لم تضمّر أو تمت بعد توقف حركة الفتوح وانقطاع العطاء عن أهلها في العصر العباسي، بل استمرت في النمو والإزدهار بوتائر أسرع طيلة القرنين الثاني والثالث للهجرة.

(١) انظر: POPOVIC, ALEXAANDRE: La revolte des esclaves en Iraq au 111è/IX siècle (Paris 1976) p.p. 83-123.

(٢) صالح العلي: خطط البصرة، مجلة سورمر (1952) ص72.

(٣) صالح العلي: خطط البصرة (بغداد 1986) ص48.

(٤) الحسيني عبد الرزاق: العراق قديما وحديثا (بيروت 1971) ص175.

لقد كان أكثر المهاجرين إلى البصرة من القبائل العربية التي كانت ديارها قريبة من البصرة، وعندما أصبحت هذه الأخيرة القاعدة الرئيسية للجيش الإسلامية المسؤولة عن فتوح أقاليم واسعة في المشرق في زمن الخليفة عثمان هاجرت إليها عشائر أخرى كثيرة أهمها عشائر عبدة القيس التي كانت تقيم في البحرين<sup>(١)</sup>، وفي زمن خلافة علي ذكر أن عدد المقاتلين المسجلين رسمياً في العطاء أصبح 60,000 مقاتل<sup>(٢)</sup>. وفي زمن زياد (45-53هـ/665-673م) أصبح مجمل سكان البصرة 200,000 ساكن، 80,000 مقاتل مسجل في ديوان العطاء و 120,000 من النساء والأطفال<sup>(٣)</sup>، وفي ولاية عبيد الله بن زياد (55-63هـ/675-683م) أصبح عدد المقاتلين 90,000 مقاتل ومعهم (140,000) من النساء والأطفال<sup>(٤)</sup>، أي 230,000 في الجملة، وقد ذكر أن أول إحصاء للنفوس في البصرة جرى سنة 116 للهجرة فكان عدد سكان البصرة (300,000) نسمة<sup>(٥)</sup>.

وقد بلغت البصرة عصرها الذهبي في أيام العباسيين وحظيت باهتمام خاص من الدولة التي اقتضت سياستها الاقتصادية ذلك الاهتمام، إذ أن البصرة في هذا الوقت أصبحت المستودع الكبير لتجارة المحيط الهندي، وميناء بغداد، الذي يغذي حركة النهوض الحضاري فيها، ويوفر المستلزمات المادية لتطورها، فتوسعت البصرة توسعاً عظيماً، ولكن لم تتوفر لدينا إحصائيات دقيقة عن عدد السكان، بل هناك إشارات إحصائية متفرقة في ثنايا الأخبار يمكن من خلالها رسم صورة تقريبية عن حجم المدينة، فيذكر أنه في الحرب التي دارت بين جيش العباسيين عند ظهورهم والأمويين المدافعين عن المدينة (سنة 131هـ/749م) قتل أحد عشر ألف

(1) صالح العلي: خطط البصرة ص47.

(2) الطبري: ج5 ص79.

(3) البلاذري: فتوح ص344.

(4) الطبري: ج5 ص433.

(5) ابن الغملاس: ص13 أنظر: SHABAN(M.A): Islamic history, (Cambridge. 1971), p.65

من أهل البصرة وهدمت سبعة آلاف دار ونصف الأسواق الموجودة، وخبر آخر يشير إلى أن والي البصرة في زمن المنصور، محمد بن سليمان هدم في سنة (145هـ) دور كل من ناصر تمرّد إبراهيم بن عبيد الله من أهل البصرة وعددها ثلاثة آلاف دار وأُتلف زهاء عشرين ألف من النخيل<sup>(1)</sup>. وفي سنة 160 هـ تم إحصاء من صلى في جامع البصرة فكان عددهم ينوف على عشرين ألف رجل، فلما رأى الوالي محمد بن سليمان ذلك الإزدحام العظيم طلب من الخليفة المهدي مئة ألف درهم لتوسيع الجامع، فأذن الخليفة بصرف المبلغ وتم توسيع الجامع إلى الصورة المطلوبة<sup>(2)</sup>، وذكر أنه في زمن الخليفة الواثق (227-232هـ) كان في البصرة (107) مسجد وجامع يسكنها 160,000 من الفقراء<sup>(3)</sup>. وتأسيسا على تقدير لسكان الكوفة في منتصف القرن الثالث للهجرة، ورد في المصادر يشير إلى وجود 400,000 ساكن<sup>(4)</sup> فيها في ذلك الوقت، ولما كانت البصرة قد تفوقت على شقيقتها الكوفة من حيث العمران والموارد منذ وقت مبكر، منذ منتصف القرن الأول الهجري تقريبا، وأصبحت الكوفة لا تشكل سوى ثلثي موارد البصرة وعمرانها<sup>(5)</sup>، يمكننا أن نقدر حجم سكان البصرة بعد قرنين من تفوقها، سيما وأن الكوفة في العصر العباسي وتحديدًا بعد تأسيس بغداد كانت تعيش مرحلة الانحسار والضمور في حين كانت البصرة تعيش ذروة مجدها وعمرانها.

#### 4-التحولات الاجتماعية:

مع تسارع التطورات والأحداث في حياة المدينة، أخذ مجتمع البصرة يسرع إلى حياة الاستقرار والتمدن، وأخذت تخف مع الزمن

(1) ابن الغملاس: المصدر السابق ص 15-16.

(2) المصدر نفسه: ص 17.

(3) المصدر نفسه: ص 21.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 4 ص 492.

(5) انظر: هشام جعيط: الكوفة ص 283.

إن تعاضم سلطة الوالي وقوة نفوذه كانت دائما على حساب سلطة القبائل، فقد دفعت سيطرته على النظام المالي ونفوذه على زعماء القبائل بهذا المجال، دفعت بهؤلاء الزعماء إلى التنافس فيما بينهم ليكسبوا رضاه، ولينالوا بالتالي قدرا أكبر من السلطة على قبائلهم من جراء ذلك، وأدى هذا في نهاية الأمر إلى إضعاف قوتهم الفعلية وتبديد أهميتهم، وأصبح الوالي مركز القوة الحقيقية التي يدين بها الجميع. من جانب آخر كان نمو المصر قد تطلب إقامة جهاز إداري يتكون من موظفين لإدارته، وكان معظم هؤلاء يعينون في البداية من غير العرب، ولم تكن لهم بالتالي قبائل تحميهم، فكان ولاؤهم للأمير وحده مما شكل ذلك دعما مضافا إلى سلطته.

وكانت الشرطة أداة أخرى اعتمد عليها الوالي لتقوية مركزه، وتشكلت هذه المؤسسة في بدايتها من عناصر غير عربية، مثال ذلك السيابجة الأربعمئة الذين أوكلت إليهم مهام حراسة بيت المال والسجن منذ أيام أبي موسى الأشعري (١). ومن الخطوات التي اتخذها زياد هو أنه استطاع أن يكون من أبناء القبائل حرسا خاصا به كان يقوم ببعض ما تقوم به الشرطة من مهام، وكان عددهم بحدود خمسمئة رجل أسندت قيادتهم إلى كل من شيبان بن عبد الله، وعبد الله بن حصن وهما من رجالات البصرة البارزين (٢). وأكمل زياد هذه الخطوة بإجراء إداري آخر وهو تقوية سلطة العرفاء الذين كانت تعينهم الدولة ومنحهم صلاحيات واسعة منها توزيع العطاء وتسجيل المواليد والموتى ومراقبة مثيري الفتن، والإبلاغ عن مفسد النظام، وهم الذين يدعون الجند إلى الجهاد، فضلا عن مسؤولية دفع الديات التي تطلب من أفراد عراقتهم (٣)، وبهذه الإجراءات أضعف سلطة شيوخ القبائل وحول الأنظار عنهم بعض الشيء وأصبح دور العرفاء كبيرا في مباشرة أعمال المدينة الإدارية وتنفيذ أوامر الوالي، لأنهم كانوا خاضعين مباشرة لسلطته.

(١) الطبري ح ٤ ص ٤٨٥، اللادري ص ٣٧٦

(٢) الطبري ح ٥ ص ٢٢٣

(٣) الطبري ح ٥ ص ٧٩، ص ٣٥٩

وساهم نظام العطاء هو الآخر في إضعاف روح التضامن القبلي حين قصر العطاء على بعض العرب دون الآخرين. فقد استحق العطاء من كان في خدمة الجيش الفعلية دون سواهم، وكان لا مناص من أن تجد الأعداد المتزايدة من المهاجرين الجدد أنفسهم خارج إطار السلطة الفعلية للعشيرة أو الفرع القبلي المهيكل وفق التنظيم الرتبي للعطاء، لذلك انصرف عدد كبير من سكان البصرة إلى كسب أرزاقهم عن طريق التجارة وما إليها. وكانت طبيعة نشاطهم الإقتصادي والمهن التي امتهنوها تفرض عليهم إقامة علاقات جديدة مبنية على المصالح المشتركة بينهم وبين أناس آخرين لا تربطهم بهم رابطة النسب أو الدم. إن ظهور مثل هذه العلاقات الحضرية دفع الكثيرين من سكان المدينة إلى التخلص من كثير من رواسب حياتهم السابقة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان يتولى ديوان العطاء عمال الأمصار (الولاء) وهم الذين يوزعون العطاء على المقاتلين عن طريق قادة الأخماس والعرفاء المعينين من قبل الدولة، ومن خلال طريقة التوزيع هذه كان دور الدولة يتأكد بقوة في المجتمع (1)، ويتعزز باستمرار دور جهازها الإداري.

وفي أواخر القرن الأول الهجري وهي المرحلة التي شهدت تقلص حركة الفتوح في المشرق أصبحت حاجة الدولة إلى الإداريين الأكفاء لضبط الأمور في البلاد المفتوحة أكثر منها إلى القادة العسكريين، وكانت المقدرة الإدارية في الغالب أهم في الاعتبار من السند القبلي الذي يتمتع به الشخص، وكانت الفوائد والإمتيازات التي تضيفها هذه الوظائف كبيرة على من يشغلها، ولما كانت هذه الوظائف تسند عن طريق الوالي وليس عن طريق العشيرة أو القبيلة، فقد عظم ذلك من شأن الوالي، وأصبح كل من يتطلع إلى منصب من هذه المناصب مثل العامل أو العريف أو القاضي وغيرها، لا بد أن يكون على صلة وثيقة بالوالي وبجهازه الإداري، فازداد مع الزمن عدد الرجال البارزين الذين أصبحت مصالحهم الشخصية تزداد ارتباطاً بالدولة من خلال الوالي، وأصبحت هذه الطبقة الحاكمة أو المتطلعة إلى الحكم تتسع مع الزمن، ويطغى نفوذها على المجتمع القبلي، الذي بدأ

(1) هشام جعيط: الفتنة ص 51.

التقافية المستمدة من عالم الصحراء (١). لقد أنشأوا مدينة من العدم وعمروها وأثروا حياتها بكل صنوف الإبداع الحضاري وأضحت البصرة بعد قرن من الزمان نموذجا لذلك النزوع التمدني الكامن في نفوس العرب. كان أهلها يحاربون في الأقاليم البعيدة، ويتخاصمون فيما بينهم، ويجنون أنفسهم في كل مرة في قلب الحروب الداخلية والأزمات السياسية، وكانوا في ذات الوقت يشيدون مدينة تفوقت في العمران وأبدعت في الفكر والأدب، وتميزت في الدين والسياسة وأخيرا في التجارة والنظم الإقتصادية المتطورة.

---

(١) هشام جعيط: الكوفة ص 193.

# الفصل الثالث

## تطور الحياة الإقتصادية

### \*المقدمة

#### I - الزراعة

- 1-نظم إعمار الأراضي
- 2-السياسة الزراعية للدولة
- 3-الحاصلات الزراعية

#### II - الصناعة

- 1-صناعات البصرة
- أ-المنسوجات
- ب-الزجاج
- ج-الصناعات الأخرى
- 2-صادرات البصرة من العراق
- أ-الكوفة
- ب-بغداد
- ج-الموصل

#### III - الأسواق التجارية

- 1-تنظيم الأسواق
- 2-أهم أسواق البصرة
- أ-سوق المربد
- ب-سوق باب الجامع
- ج-السوق الكبير
- د-سوق الكلاء
- 3-الرقابة على الأسواق
- 4-الخانات والفنادق



وتركت بيد أصحابها يدفعون عنها ضريبة الخراج إيجارا للأراضي التي يزرعونها<sup>(1)</sup>، من غير أن تخضع للبيع والشراء حتى إذا ما أسلم أصحابها دفعت عنهم الجزية فقط<sup>(2)</sup>. وبالنسبة للأراضي التي كانت لكسرى وأهل بيته وأرض من قتل في الحرب وأرض من هرب وأوقاف البريد وأوقاف بيوت النار وغيرها والتي أطلق عليها [الصوافي] فقد أصطفاها عمر وأصبحت ملكا للدولة الإسلامية<sup>(3)</sup>، وعولج أمرها بعدة طرق: إما أن يعمرها الوالي ويؤدي عنها إلى بيت المال، أو أن ينفق عليها ويستأجر من يقوم بأمرها، أو أن يقطعها أحد المسلمين<sup>(4)</sup>.

أما أراضي البصرة فأن الأحكام الإدارية والفقهية التي طبقت عليها كانت تختلف بعض الشيء عما كان يسري على أراضي السواد الأخرى، باستثناء المنطقة السكنية التي شيدت عليها المدينة والتي كان يسري عليها منذ البداية ما يسري على الأمصار الإسلامية الأخرى من أحكام، إذ اعتبرت الأرض التي شيدت عليها الدور والبيوت ملكا خاصا لأهلها. فإن أراضي منطقة البصرة عموما وهي الأراضي المحيطة بالمدينة، قد مرت أحكامها بتطورات كانت تستجيب لظروف كل مرحلة من مراحل نمو البصرة وتوسعها ففي بداية الفتح وعندما تقدمت الجيوش العربية في هذه المنطقة لضمها إلى الدولة، تركت تلك الأراضي بيد أصحابها الذين كانوا يعملون بها ويزرعونها، على أن يدفعوا عنها الخراج - كما هو شأن الأراضي في عموم السواد - وكان الخراج يؤخذ على أساس المساحة المزروعة، ولم يكن ثابتا فقد مر بتطورات كثيرة من حيث مقداره ونوعية المحصول وطريقة جبايته<sup>(5)</sup>.

وخلال مراحل نمو البصرة شهدت أراضيها حركة استصلاح واسعة لكثير من الأراضي الموات، ومنحت القطاعات للشخصيات البارزة في

(1) الصافي: الوزراء (القاهرة 1958) ص 338-9 و 340-343

(2) أبو يوسف: الخراج ص 27

(3) البلاذري: فتوح ص 272، أبو يوسف: الخراج ص 57

(4) قدامة بن جعفر: الخراج ص 217.

(5) صالح العلي: خطط ص 224

الدولة وامتلك الكثير من العرب أراض زراعية خاصة بهم، فأصبح وضع هذه الأراضي مختلفاً<sup>(١)</sup>، إذ اعتبرت في حكم الأراضي العشرية<sup>(٢)</sup>، أي يدفع عنها العشر بدلا من ضريبة الخراج، فكان هذا التصنيف نتيجة طبيعية للتوسع الكبير في زراعة الأراضي التي كانت جذباء، ولاستحداث أراض جديدة من خلال تجفيف بعض من مياه البطيحة، وكان في الوقت ذاته إجراء محفزا على المزيد من التوسع في زراعة هذه المنطقة وتنوع محاصيلها، خاصة تلك التي تدخل في ميدان التبادل التجاري.

لقد كان لنظام إقطاع الأراضي إلى بعض المنتفعين لزراعتها واستثمارها أكبر الأثر في ظهور الزراعة وتوسعها في هذه المنطقة التي كانت مجدبة وتعاني من رداءة تربتها وشحة مياهها، فقد بذل هؤلاء المستفيدون جهودا واضحة في حفر شبكة هائلة من القنوات والترع التي تداخلت وتعددت لكثرتها<sup>(٣)</sup>، حتى اكتست أرض البصرة بالمزروعات وأشجار النخيل على امتداد مسافة متصلة تزيد على الخمسين فرسخا من عبدي إلى عبادان<sup>(٤)</sup>. وسنقف قليلا عند هذا الصنف من الأراضي لأنه يمثل أكثر الأراضي المزروعة في البصرة<sup>(٥)</sup>.

كانت الأراضي التي تعود ملكيتها إلى الدولة تقسم إلى فئتين: فئة احتفظت بها واستثمرتها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بإشراف الديوان، وفئة ثانية عهدت بها إلى أفراد منتفعين أو أحيانا إلى جماعات مقابل بعض الشروط والالتزامات، وهي ما أطلق عليه بالقطائع -ومفردها قطيعة-<sup>(٦)</sup>، وهي تختلف تماما عن مفهوم الإقطاع - رغم أن هذه الكلمة من نفس الاشتقاق، "فالقطيعة بمعناها الأساسي: أرض تقتطعها الدولة من

(١) حول تطور الأحكام التي وضعها العرب على الأراضي في منطقة البصرة، أنظر أبو يوسف الخراج ص 59، اس العقي، البلدان ص 119، يحيى س آدم، الخراج ص 29 صالح العلي حطط ص 227

(٢) الإصطحري المسالك ص 80-89 اس حوقل ص 239

(٣) ذكر أن عددها في مطلع القرن الثاني للهجرة كان يريد على 120 000 نهر الإصطحري المسالك ص 80

(٤) الإصطحري ص 80 اس حوقل ص 159

(٥) عد العرير الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ص 39

(٦) السستاني محمد الطلاب، ط 11 (دار المشرق) ص 602

أملأها وتمنحها، دونما تحديد للمدة في غالب الأحيان، إلى رجل مسلم يمارس فيها عمليا جميع امتيازات المالك ولكنه يتحمل أيضا جميع أعباء المالك المسلم. أي أن له فيها حقوق المالك وليس له فيها أي حق من حقوق "السيادة" وهو ملتزم باستثمار الأرض أو "إحياء الأرض الموات" وهذا لا يعني أن يعمل فيها شخصيا، بل عليه أن يعهد بها إلى أناس قادرين وفي شروط مناسبة وإلا نزع من الأرض ومنحت لمنفعة آخر يحسن استثمارها. كذلك يخضع المالك لإشراف الإدارة والدولة. وهو إشراف نظامي على شؤون القطيعة... كما أنه ملزم بأداء العشر الواجب على كل مسلم. وقد تكون القطيعة أحيانا أرضا واسعة جدا. وأحيانا أخرى محددة بجزء من القرية، أو بإحدى عقارات المدينة...<sup>(1)</sup>، وبذلك فهي لا تشبه الإقطاع الذي يكون صاحبه عادة معفى من كل ضريبة ويمارس في إقطاعه كامل صلاحيات وحقوق التملك، في حين نجد في نظام القطاع الإسلامي أن حق الملكية لم يراع دائما، فقد عمد بعض الخلفاء عند حصول أزمات مالية إلى استرجاع قطاع سابقة، ويذكر أن الخليفة المقتدر أنشأ لهذا الغرض ديوانا خاصا سماه "ديوان المرتجعات"<sup>(2)</sup>.

وتصنف القطاع نسبة إلى ما يصبها من حقوق إلى صنفين:  
- قطاع التملك: وتكون لصاحبها ملكية تامة، وقد تكون وراثية أيضا. وعلى صاحب هذه القطيعة دفع ضريبة العشر، ويمنح هذا النوع من القطاع عادة من الأرض الموات لإحيائها، أو من أرض كان لها مالك قديم ومات دون وارث<sup>(3)</sup>.

- قطاع الإستغلال: ظهر هذا النوع من القطاع متأخرا، وهو يشبه إعطاء الأرض بالإيجار أو بالضمن أو بالمزارعة، وعادة ما تمنح من أرض الصوافي مقابل نسبة من الحاصل أو دفع مبلغ نقدي محدود سنويا وهذا النوع من الإقطاع لا يورث<sup>(4)</sup>.

(1) كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ترجمة بدر الدين القاسم، ط 2 (بيروت 1977) ص 124

(2) عريب: صلة الطيري ص 145.

(3) قدامة: إخراج ص 215 (طبعة بغداد 1981).

(4) قدامة: إخراج ص 218، عبد العزيز الدوري تاريخ العراق ص 40.

وقد أشارت المصادر الى الكثير من هذه القطائع في البصرة خلال القرون الأولى للدولة الإسلامية (١). أطلق عليها أسماء أصحابها مضافا إليها ألف ونون (٢). وللتعرف على الشخصيات والأسر التي كانت تملكها نذكر أشهر تلك القطائع وأصحابها:

\* **بلالان** : قطيعة لبلال بن أبي بردة ، كانت لعباد بن زياد بن أبيه فأشترأها.

\* **قتيبان** : لقتيبة بن مسلم الباهلي (٣)

\* **حمرانان** : لحمران بن أبان مولى عثمان بن عفان (٤).

\* **المسرقانان** : قطيعة لآل أبي بكرة (٥).

\* **خالدان الأجمة**: لآل خالد بن أسيد وآل أبي بكرة.

\* **سويدان** : قطيعة كانت لعبيد الله بن أبي بكرة مبلغها اربعمائة

جريب فوهبها لسويد بن منجوف السدوسي فنسبت اليه.

\* **جبران** : لآل كلثوم بن جبر نهر أبي بردة بن عبيد الله بن أبي بكرة.

\* **روادان** : قطيعة لرواد بن أبي بكرة.

\* **عبد الليان** : لعبد الله بن أبي بكرة.

\* **معقلان** : قطيعة معقل بن يسار.

\* **شط عثمان** : وهو إقطاع واسع، يقال أن الخليفة عثمان أقطعه لعثمان بن أبي العاص، وكانت تبلغ مساحته عشرة آلاف جريب وقد

(1) ذكر الدكتور إبراهيم السامرائي في بحث بعنوان "أشتات بصرية" نشره ملحقا بالترجمة العربية لكتاب ماسنيون:

خطط البصرة وبغداد أسماء أكثر من خمسين قطيعة في البصرة مستندا في تصنيف هذه القطائع وأسمائها الى فتوح البلدان للبلاذري، ومعجم البلدان لياقوت أنظر خطط البصرة وبغداد ص 67-97.

(2) كان أهل البصرة يزينون في أسم الرجل الذي تنسب اليه القطيعة أو القرية ألفا ونونا، وهذه النسبة من غير شك لم تكن نسبة عربية وانما جاءت من تأثيرات فارسية، السامرائي: المرجع نفسه ص 74.

(3) وهي المعروفة الآن في البصرة باسم "كيبان"

(4) هناك نهر معروف حاليا في البصرة بهذا الاسم بين القرنه وكرمة علي

(5) يذكر أن أبي بكرة أول من أقطع في البصرة، وأول من زرع النخيل: (لين الفقيه ص 188)، وقد ولي عشور

الأبله في زمن خلافة عمر بن الخطاب (البلاذري فتوح ص 351) وشكلت سلالته بعدئذ طبقة من الملاك

الزراعيين في البصرة

- قسم الى إقطاعات صغرى فاقطع عثمان بي أبي العاص  
أخاه حفصا: حفصان وأقطع أخاه أبا أمية: أميتان وأقطع  
أخاه الحكم: حكمان  
وأقطع أخاه المغيرة: مغيرتان  
وكان لكل قطيعة من هذه القطائع نهر خاص بها<sup>(1)</sup>.
- \*خيرتان :نسبة الى خيرة بنت ضمرة القشيرية امرأة المهلب بن أبي  
صفرة.
- \*مهلبان :نهر منسوب الى المهلب بن أبي صفرة ويقال : بل كان  
لزوجه خيرة، فغلب عليه اسم المهلب وهي أم أبي عيينه  
أبنه.
- \*نافعان : قطيعة لنافع بن الحارث الثقفي.
- \*عبد الرحمانان: لعبد عبد الرحمان بن زياد.
- \*اسلمان : لأسلم بن زرعه الكلابي.
- \*فيلان : لفيل مولى زياد.
- \*أنسان :نسبه الى أنس بن مالك في قطيعة من زياد.
- \*عبادان : قطيعة لحرمان بن أبان مولى عثمان من عبد الله بن  
مروان، وكان حرمان قد وهب لعباد بن حصين الحبطي  
غربي النهر وحبس الشرقي فنسب الى عباد بن الحصين  
قطيعة حرب بن عبد الرحمان بن الحكم بن أبي العاص  
\*حربان
- \*المسمارية : قطيعة مسمار مولى زياد بن أبيه.
- \*السيببية : أجمة لرجل من الدهاقين يقال له سبيط.
- \*جندلان : لعبيد الله بن جندل الهلالي.
- \*جبيران : قطيعة جبير بن أبي زيد من بني عبد الدار.
- \*قاسمان : قطيعة القاسم بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد  
المطلب.
- \*خلفان :قطيعة لعبد الله بن خلف الخزاعي، وكان قد ولي قضاء  
البصرة.

(1) البلاذري: فتوح ص 361: أنظر شارل بيلا: المرجع السابق ص 42-43

- \*أزرقان : تنسب الى الأزرق بن مسلم مولى بني حنيفة.  
 \*زيادان : قطيعة كانت لزياد مولى بني الهيثم، وهي الجموم كانت لأبي بكر، ثم صارت لعبد الرحمان بن أبي بكر، وأخيرا انتقلت الى زياد.  
 \*حصينان : لحصين بن أبي الحر العنبري.  
 \*منقذان : لمنقذ بن علاج السلمي.  
 \*عبيدان : لعبيد بن أبي كعب النمري.

وإجمالاً يمكننا أن نميز بين أربع فئات من الملكية الزراعية في العراق: أولها الملكية الفلاحية الصغيرة جداً، وتليها ملكية أولئك الذين سمو بالدهاقين في العصر الساساني، وهناك ملكية سكان المدن وهي مهمة جداً، وأخيراً الملكيات الواسعة التي يملكها بضع مئات من الزعماء العرب والأمراء الأمويين والعباسيين والعائلات التي تفرعت عنهم<sup>(1)</sup>.

## (2) السياسة الزراعية للدولة:

أدركت الدولة العربية الإسلامية منذ وقت مبكر أهمية موارد العراق الزراعية. وبذل الخليفة عمر بن الخطاب جهوداً حثيثة رغم معارضة بعض الصحابة في سبيل عدم التفريط بأرض العراق الزراعية وتقسيمها بين المقاتلين فتضيع أو تتشتت مواردها. واختار حلاً وسطاً بين تقسيمها وبين استحواذ الدولة الكامل عليها والتصرف بها، وذلك باعتبار هذه الثروة العقارية فيئاً للمسلمين يستثمرونها تحت إشراف الدولة المباشر<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن رغبة السكان الجدد في حيازة الأرض وزراعتها كانت منذ البداية قوية بحيث اضطر الخليفة عمر أن يكتب إلى أهل البصرة عندما اتخذوا الضياع وعمرؤا الأرض: "لا تتهكوا وجه الأرض فإن

(1) كاهن: المرجع السابق ص 127.

(2) أنظر مناقشة الموضوع من وجهة نظر فقهية وتاريخية: هشام جعيط "الكوفة" ص 61-65.

شحمتها فيه" (١)، ولا صحة لما قيل من أن عمر بن الخطاب كان قد منع العرب من استثمار الأراضي، (٢) لأنه أقطع بنفسه القطائع لكبار الشخصيات في البصرة كأبي بكر، ونافع بن الحارث وغيرهما، وكذلك فعل الخليفة عثمان بن عفان من بعده حين أقطع لعمران بن الحسين، وابن عامر وعثمان ابن أبي العاص الثقفي وعدد آخر كبير من المنتفعين (٣).

وشهد عصر الأمويين اهتماما واضحا وكبيرا بالزراعة في العراق واتخذت سياستهم في تطويرهما اتجاهات عدة، أولها القيام بمسح الأراضي الزراعية بهدف تنظيم ملكيتها وزراعتها من ناحية، وتنظيم الضرائب المفروضة عليها من ناحية أخرى، كما قاموا بنقل المزارعين إلى الأراضي الزراعية الجديدة في سواد العراق الذي كان موضع اهتمام الخلفاء الأمويين (٤) وقد وفر ذلك خبرات وتجارب ساهمت في زيادة الإنتاج وتطوير طرق الإستغلال مما يعود بالخبرة والخير على المزارع خاصة وعلى الدولة بصورة عامة، وقد اختلفت حالات النقل، فمنها ما كان عن رغبة واختيار - وهو ما حدث في بداية الفتح عندما هرب فلاحو السواد ثم ما لبثوا أن عادوا إلى أراضيهم بعد تبدد الخوف واستقرار الأمور خاصة وأن الدولة شجعتهم على ذلك - (٥)، ومنها ما كان نقلا بالقوة كالذي حدث لجماعات من زط السند، الذين أتى بهم الحجاج بن يوسف الثقفي وأنزلهم البصرة (٦).

لقد أظهر الأمويون اهتماما بموضوع المياه - وهو العنصر الذي لا تقوم الزراعة إلا عليه - سواء كان أمطارا أم مياه جارية أم جوفية فحفروا الأنهار وشقوا الترع، وتجلى ذلك في حفر نهر معقل وإعادة حفر نهر الأبله (٧)، وحفر زياد ابن أبيه نهر حبيب ونهر البنات، نسبة إلى بناته،

(١) الجاحظ: البيان والتبيين (مطبعة الاستقامة 1975 ج 2 ص 194

(٢) شارل بيلا: الجاحظ ص 41-42

(٣) البلاذري: فتوح ص 351

(٤) الماوردي: الاحكام السلطانية ط 2 (القاهرة 1966) ص 148

(٥) الطبري ج 3 ص 589

(٦) البلاذري: فتوح ص 375

(٧) أنظر الباب الثاني، فصل الطرق النهرية

وحفر عبد الله بن عامر نهر الأساورة ونهر أم عبد الله تخليداً لذكرى أمه، كما حفرت أنهار أخرى كثيرة (1)، وقد أشرنا سابقاً إلى الصهاريج التي حفرها عدد من الولاة في البصرة لتأمين المياه العذبة للعامة.

لقد جرت في هذا العهد محاولات ناجحة لزيادة مساحة الأراضي الزراعية في البصرة عن طريق تجفيف مساحات معينة من أطراف البطيحة، إذ أن إحياء الأراضي الموات الذي دعمته الدولة وسانده التشريعات الفقهية بقوة ساهم في زيادة الإنتاج وارتفاع الدخل، فكانت الدولة تسمح لمن أحيا أرضاً مواتاً أن يمتلكها ويزرعها، أو أن يؤجرها ويحفر الأنهار فيها، كما كانت تتوزع ملكية الأرض من كل من لا يستثمرها ثلاث سنوات متتالية، وتمنحها لمن يزرعها مجدداً (2)، وما كانت الزراعة لتصيب ما أصابته من تقدم وازدهار لولا الخطوات الإيجابية التي اتبعتها الدولة في مجال تشجيع المزارعين واستغلال أمثل لموارد الإنتاج فقد رفعت الخراج عن الأراضي التي لا تصلها المياه والتي تصاب محاصيلها بالآفات والأمراض (3)، ولم تؤخذ الصدقة عن البقر والإبل للدور الذي تشغله في العمل الزراعي (4)، بل أن الحجاج ذهب إلى أكثر من ذلك حين منع سكان السواد من ذبح الأبقار حتى لا يؤثر ذلك على الحراثة والري (5)، وأعفت الدولة كثيراً من المحاصيل الزراعية كالأعلاف والبقول والخضروات والقطن والكتان من الزكاة (6)، دعماً وتشجيعاً على زراعتها لارتباطها المباشر بتطوير الإنتاج الزراعي والصناعي، ورفعت الخراج والعشر عن ثمار الأودية والجبال (7)، مع اعتماد أسلوب تسليف المزارعين، فقد أسلف مزارعي السواد مبلغ مليوني درهم لإعمار

(1) الجاحظ: البيان والتبيين ج 1 ص 210، ابن قتيبة المعارف ص 246

(2) أبو يوسف: الخراج ص 71، ويذكر البلاذري أن زياد كان يسزدها بعد عامين من عدم استثمارها، فتزوج

البلدان ص 361

(3) اليقوبي: تاريخ ج 2 ص 152

(4) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 118

(5) ابن رسته: الأعلاق النفيسة ص 105

(6) الأحكام السلطانية ص 118

(7) أبو يوسف: الخراج ص 76



أراضيهم<sup>(١)</sup>، وعني الأمويون كذلك بإقامة الجسور والقناطر والمسنيات ومشاريع الري لتفادي خطر الفيضانات وتسهيل حركة التجارة لنقل الانتاج إلى مناطق الإستهلاك أو التصدير.

وفي العصر العباسي كانت تجارة البصرة التي بلغت مرحلة متقدمة من التطور تستند الى زراعة مزدهرة، حرص بنو العباس على تدعيمها وتطويرها، وتواصلت إهتماماتهم بأرض السواد الخصبة ووفروا لها كل أسباب الإزدهار. ومن الإجراءات التي اعتمدتها الدولة في سياستها الزراعية :

أ- تشجيع الفلاحين على مزاولة الزراعة والعناية بحقولهم وذلك من خلال تخفيض الضرائب والأعباء المالية عليهم<sup>(٢)</sup>، وتسليفهم البذور والنقود وتنظيم الجباية على أسس عادلة<sup>(٣)</sup>.

ب- شق القنوات اللازمة للري، وإعادة العمران إلى المزارع المهجورة والمخرّبة وإصلاح وتجفيف الأراضي التي أغرقها مياه الفيضانات المتكررة من الفرات ودجلة والبطائح<sup>(٤)</sup>.

لقد ترتب على تلك السياسة الزراعية زيادة كبيرة في الإنتاج الزراعي خاصة في محاصيل القمح والشعير والتمور والرز والسمسم فضلا عن الخضروات وأنواع الفاكهة<sup>(٥)</sup>، الأمر الذي دعم من دور البصرة التجاري، فأصبحت مركزا لتجارة المواد الغذائية في الخليج العربي، وصارت الممول الأول لسكان تلك الشواطئ المطلّة على الخليج والتي كانت تفتقر إلى المواد الغذائية، فضلا عن تجهيز السفن التجارية المغادرة

(1) ابن رسته ص 105، ابن خرداذبة ص 15

(2) ضياء الدين الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية (القاهرة 1961) ص 416-417.

(3) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 52-53.

(4) فيليب حي: تاريخ العرب المطول، الطبعة الرابعة (بيروت 1965) ج 1 ص 10-11.

(5) المصدر نفسه ج 2 ص 429.

بالمؤن اللازمة للرحلات الطويلة وهو أمر يهتم التجار كثيرا (١). كما أدى هذا التوسع في الزراعة وتأمين الحاجات الغذائية إلى خلق حالة من الأمن والاستقرار في المدينة تشجع على الهجرة إليها وعلى نمو سكانها حتى تضخم إلى الحد الذي عرفناه (٢).

### (3) الحاصلات الزراعية

من المؤكد أن الازدهار التجاري والعمراني في مدينة البصرة كان له صده البعيد على النشاط الزراعي في الريف، وكانت التجارة الواسعة وأسواق المدن تستهلك الكثير من المواد الغذائية المعروفة، على أن الزراعات التي كانت تدخل ميدان المضاربة التجارية كانت هي الأكثر فائدة لأصحاب الملكيات الكبيرة منها للفلاح البسيط، لذلك وقع التوسع في زراعتها. وكانت المدينة دائما هي المستفيد الأول من أي توسع زراعي في الريف، ذلك أن الريف يعرض دائما محاصيله بسعر الضريبة مضافا إليها بعض الإلتزامات، ولم يعرضها بسعر المدينة التجاري فعاش الريف في اقتصاد شبه مغلق وب حياة بسيطة، في الوقت الذي كانت فيه المدن تنمو وتتطور. وبالرغم من أن هذه الزراعة الواسعة لم تشهد استحداث زراعات أو تقنيات زراعية جديدة كثيرة، فأن البصرة قد لعبت دورا على نطاق واسع بحكم صلاتها التجارية وموقعها على استيراد زراعات جديدة وغريبة عن المنطقة. ثم عن طريقها انتقلت هذه المزروعات والتقنيات إلى مناطق أخرى في نطاق العالم الإسلامي (٣)، وأشهر تلك المحاصيل التمور والسكر والرز والليمون والقطن ومحاصيل أخرى غيرها (٤).

ومن أشهر منتجات البصرة الزراعية التي كانت تتاجر بها:

(1) العسكري: المرجع السابق ص 95.

(2) لومبارد: المرجع السابق ص 164.

(3) كامن: المرجع السابق ص 120، 128.

(4) لا تزال أسماء الكثير من هذه المحاصيل في اللغات الأوروبية تشهد على أصلها العربي مثل كلمة سكر فهي:

SUCRE بالفرنسية و SUGAR بالانكليزية و زاخرا بالروسية وتشكر بالتركية... الخ كذلك الحال بالنسبة لكلمة

رز العربية فهي RIZ بالفرنسية و RICE بالانكليزية و RIZZO بالإيطالية وينطبق ذلك على كلمة قطن وغيرها،

لومبار: الجغرافية التاريخية ص 219

أنواع التمر، والتي كانت تشكل ثروة منطقة البصرة الأساسية فالنخلة تعتبر شجرة البصرة الأولى ومنها وصلت إلى بغداد والشام وشمال إفريقيا<sup>(١)</sup>. وكانت أول نباتات زرع في البصرة عند إنشائها، ويعود الفضل الأول في زراعتها على رأي المؤرخين إلى أبي بكر<sup>(٢)</sup>، وكان النخيل يزرع من الفسيل أو من النوى، ويلقى بواسطة فلاحين مختصين<sup>(٣)</sup>، وقد امتدت بساتين النخيل في البصرة من عبدسي إلى عبادان على مسافة تجاوزت الخمسين فرسخا<sup>(٤)</sup>، وكانت تنتج أنواعا من التمر لا مثيل لها في أي مكان، فيشير المقدسي إلى أن في البصرة من أجناس التمر تسعة وأربعين<sup>(٥)</sup>، بينما يذكر الجاحظ أن مدينة البصرة تنتج ثلثمائة نوع من التمر<sup>(٦)</sup>، وكانت تصدر مقادير كثيرة منها إلى الخارج<sup>(٧)</sup>، حيث كان تمر البصرة من أجود أنواع التمر المعروفة آنذاك<sup>(٨)</sup> ويقول الحميري عن أهل البصرة "...أما النخل فهم أعلم قوم بها وأحذقهم بغراسها وتربيتها وإصلاحها وإصلاح عللها، وأدوائها، وأعرفهم بأحوالها من حين تغرس إلى حين تكتمل وتستوي، وأبصرهم بالتمر وخرصه وتمييزه وحزره وخزنه وهي تجارتهم العظمى وعدتهم الكبرى..."<sup>(٩)</sup>.

ويزرع في البصرة القمح والشعير والذرة، واشتهرت البصرة أيضا بزراعة الرز الذي كان مصدرا رئيسيا لخبز سكانها<sup>(١٠)</sup>، وقد انتقل إليها منذ زمن بعيد من دلتا الهند<sup>(١١)</sup> وزرع في مناطق المستنقعات الغارقة بالمياه حيث كانت المياه الضحلة من البطيحة مكانا مناسباً جداً

(١) لومبارد: المرجع السابق ص 218

(٢) ابن الفقيه ص 188

(٣) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 60

(٤) الإصطخري ص 81

(٥) أحسن التقاسيم ص 113، 118، 128

(٦) ابن الفقيه ص 253

(٧) ابن حوقل ص 149، المقدسي ص 142

(٨) آدم متر: تاريخ الحضارة ج 2 ص 226

(٩) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق أحسان عباس (بيروت 1984) ج 2 ص 105

(١٠) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج 1 ص 221. ابن الفقيه ص 187

(١١) لومبار : المرجع السابق ص 164

لزراعته<sup>(١)</sup>. ومنذ أواخر العصر الساساني كانت المنطقة المحيطة بإقليم البصرة منتجة كبيرة لقصب السكر،<sup>(٢)</sup> وهو نبات وافد من الهند، وبعد الإسلام انتقلت زراعته باتجاه البحر المتوسط ووصلت إلى الشام ومصر وجنوب المغرب الأقصى والسواحل الجنوبية لاسبانيا<sup>(٣)</sup>، ومن المحتمل أنه كان يزرع في البطيحة<sup>(٤)</sup>. وأصبحت البصرة بعدئذ أكبر منتج ومصدر للسكر في المشرق الإسلامي<sup>(٥)</sup>، وعرفت البصرة أيضا بجودة برتقالها وليمونها<sup>(٦)</sup>، وكانت أشجار الليمون قد جلبت إلى البصرة من الهند أواخر القرن الثالث الهجري ومنها انتقلت إلى العراق والشام والمغرب الأقصى<sup>(٧)</sup>، كما كانت البصرة من المراكز المهمة لزراعة القطن<sup>(٨)</sup>.

لقد كان لنظام الري الذي تميزت به البصرة دون سواها من مناطق العراق الأخرى أكبر الأثر في توسع الزراعة وتطورها في هذه المنطقة، وذلك لأنه كان نظاما سهلا ولا يكلف المزارعين أو الدولة الكثير من الجهود والأموال فقد كان في منطقة البصرة شبكة واسعة من الأنهار والقنوات تأخذ ماءها من دجلة - شط العرب - نتيجة دفع مياه المد الذي يدخلها مرتين كل يوم وليلة، فتروى الحقول والبساتين دون تدخل الإنسان أو الحاجة إلى آلات رفع أو دفع للمياه ثم ينحسر الماء عند الجزر تلقائيا<sup>(٩)</sup>. وقد استغل أهل البصرة حركة الماء هذه - ظاهرة المد والجزر - أفضل استغلال فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار الكثيرة ليدررها

(١) المقدسي ص 119

(٢) نفس المصدر ص 145

(٣) لومبار: المرجع السابق ص 218

(٤) أخوان الصفا: رسائل أخوان الصفا، (بيروت 1957) ج 2 ص 137، وتقتضي زراعة قصب السكر إمكانات واسعة تفوق إمكانات الفلاحين الأفراد وهنا نجد العلاقة منذ وقت مبكر بين زراعته وبين وفرة الأيدي العاملة والتي كانت تتألف من العبيد الزنوج المحليين من سواحل أفريقيا الشرقية، أنظر: كلود كاهن، المرجع السابق

ص 121، لومبار، المرجع السابق ص 218

(٥) لومبار، المرجع السابق ص 218

(٦) المقدسي ص 145

(٧) المسعودي: مروج الذهب ج 1 ص 378

(٨) المقدسي ص 118، 141

(٩) الاصطخري ص 81

الماء أثناء حركته داخلا أو خارجا<sup>(١)</sup>. وهذا دليل آخر يفسر لنا أسباب وجود ذلك العدد الهائل من القنوات والأنهار في البصرة.

## II- الصناعة

ظهرت الصناعات في البصرة بصورتها البدائية البسيطة استجابة لحاجات المجتمع الجديد الذي بدأ يستقر في المدينة، ونظرا لقلّة خبرة العرب في هذا الميدان فقد قامت هذه الصناعات في المرحلة المبكرة من تأسيس البصرة على أيدي أولئك الذين دخلوا الإسلام من غير العرب، وأصبحوا بمرور الأيام جزءا من المجتمع والعنصر المنتج صناعيا فيه. ويمكن القول أن هذه العناصر هي التي ساهمت في ظهور الصناعات وتطورها، ثم أشركوا العرب المسلمين في ذلك حتى استطاعوا أن يمهرروا بها، وأن يصلوا إلى ما وصلوا إليه. ومن خلال دراسة تلك المهن الأولى وجد أن بعض الطوائف من غير المسلمين قد تحتكر أحيانا صناعات معينة، فقد ذكر الجاحظ أن النصارى يشتغلون أطباء وعطارين وصيارفة، بينما يمتنهن اليهود مهنا محتقرة في ذلك الوقت فيقول "ولا تجد اليهودي إلا صباغا أو دباغا أو حجاما أو قصابا أو شعابا"<sup>(٢)</sup>، وربما احترف بعضهم صناعة السفن والزجاج والمنسوجات الحريرية<sup>(٣)</sup>. ويبدو أن تلك الصناعات ظلت طيلة القرن الأول الهجري في إطار الصناعات التقليدية التي تنتج لاستهلاك العامة وسد حاجات الناس الضرورية، لذا لم يكن لها أثر واضح في ميدان التبادل التجاري.

يوضح ابن خلدون العلاقة بين الصناعة والتجارة بقوله "إن الصنائع تستجد وتكثر إذا كثر طلبها"<sup>(٤)</sup> وإن الدولة تشكل الجزء الأكبر من هذا الطلب على الصناعات باعتبارها "السوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء"<sup>(٥)</sup>.

(1) المقدسي ص 125، آدم مئثر: الحضارة الإسلامية ص 266

(2) رسالة الرد على النصارى، طبعت ضمن ثلاث رسائل نشرها فنكل ص 17

(3) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص 205

(4) المقدمة (المدار التونسية 1989) ص 485

(5) نفس المصدر والصفحة

ويقرن ظهور الصناعات وتطورها بتطور المجتمع ورسوخ مؤسسات الدولة. (1)، ولما كان العراق قد عاش نهضة عمرانية واجتماعية واسعة في العصر العباسي وشهدت مؤسساته الاقتصادية تطورا كبيرا، وأصبح مركزا للعديد من الصناعات المهمة آنذاك (2)، فقد استمدت البصرة من هذا التقدم الصناعي مددا آخر زاد من نشاطها التجاري المحلي والخارجي، لأن الكثير من تلك الصناعات تجاوز انتاجها حاجة الإستهلاك الداخلي لتكون مادة للتصدير، فحملها التاجر العراقي عن طريق البصرة إلى البلدان المختلفة، وكانت أغلب الصناعات المصدرة إلى الخارج من أدوات الترف التي يستعملها الأغنياء (3).

## 1) صناعات البصرة

ظهرت في البصرة صناعات مهمة كان لها رواجها المميز في المجال التجاري الداخلي والخارجي، كما تدفقت عليها سلع المدن العراقية الأخرى والأقاليم المجاورة حتى غدت البصرة من أهم مراكز تصديرها إلى الأرجاء القريبة والبعيدة باعتبارها ميناء العراق الوحيد ومركزه التجاري النشط وأهم تلك الصناعات هي:

أ- المنسوجات: لقد كانت صناعة المنسوجات من أقدم وأهم الصناعات في العراق وهي أقدم الصناعات اليدوية على الإطلاق (4) لارتباطها المباشر بحياة الإنسان من حيث حمايته من الظروف المناخية وظهوره بمظهر لائق (5) وتتكون هذه الصناعة من المنسوجات الكتانية والقطنية والحريرية والصوفية التي يصنع منها فضلا عن الألبسة، الأثاث-السجاد وفرش الأرض، ولتزيين البيوت-، وتصنع أيضا الخيام والرايات. وقد تطورت هذه الصناعات تطورا كبيرا في ظل الإسلام، خاصة في العصر العباسي (6).

(1) نفس المصدر ص 482

(2) ابن حوقل ص 234، المقدسي ص 33

(3) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 100

(4) وليد الجادر: الحرف والصناعات اليدوية في العصر الأشوري المتأخر (بغداد 1972) ص 83

(5) ابن خلدون: المقدمة ص 496

(6) الدوري: تاريخ العراق ص 101

حتى ذهب أحد الباحثين إلى القول بأن "الحضارة الإسلامية هي حضارة النسيج" (1) .

وكانت أهم منتجات البصرة في ذلك الميدان هي النبز والخز (2) والديباج حتى تفوقت بذلك على الكوفة والشام، (3) كما كان ينسج فيها فوطا -جمع فوطة- من أقمشة كتانية وقطنية من النوع الممتاز يستعملها الرجال والنساء كغطاء للرأس أو كمئزر (4) . واشتهرت البصرة بصناعة أنواع خاصة من الثياب البصرية المميزة تعرف بـ(المبججات)، هي ثياب حمراء الأطراف ملونة بصنوف الألوان، ومعلمة بالذهب، كانت تصدر إلى مناطق عديدة ، فيذكر البيروني أن هذه الثياب كانت مطلوبة في أقاصي أرض المغرب وفي بلاد السودان، وكان التجار البصريون يحملون تلك الثياب إلى هذه المناطق لمبادلتها بالذهب مع سكانها الذين "لا يرغبون في شيء غير تلك الأثواب، فأنهم يتهافتون عليها" (5) .

إن شهرة البصرة بانتاج أنواع من الأقمشة الجيدة كانت مفخرة سكانها وقد ذكر الرازي في تاريخ مدينة صنعاء نقلا عن قاضي البصرة يحيى ابن اكثم (202-210هـ/817-825م) إنه عد أطرزة البصرة فكانت مائة ألف وعشرين ألف طرازا (6) ، وبالرغم من المبالغة الواضحة في الرواية فإنها تدل على ضخامة مصانع النسيج في البصرة في بداية القرن الثالث الهجري.

وكانت الأبلّة تصنع الكتان بنوعية المطرز والعادي (7) وفي ميسان المجاورة للبصرة كانت تصنع الثياب الميسانية

(1) لومبار: المرجع السابق، ص 237

(2) الخز نسيج رقيق يعمل من الصوف والحرير، أما النبز فهو نسيج قطني ثمين

(3) ابن قتيبة عيون الأخبار ج 1 ص 217، المقدسي ص 128

(4) المقدسي ص 128

(5) البيروني: كتاب الجماهر في معرفة الجواهر (عالم الكتب، بيروت بدون تاريخ) ص 241

(6) الرازي: تاريخ صنعاء ص 116

(7) المقدسي ص 128

الرفيعة<sup>(1)</sup>، وكان أهل كور دجلة والسواد وميسان ودست ميسان وهي مناطق محيطة بالبصرة يصنعون الستور والبسط ومنسوجات حريرية مختلفة، وبسط ملونة وأنواعاً أخرى مختلفة من الفرش والأثاث<sup>(2)</sup>. واشتهرت ميسان أيضاً بصناعة التكاك والمطارج الميسانية الفاخرة<sup>(3)</sup>، كما صنعت فيها الحصر الجيدة،<sup>(4)</sup> وكان أهل عبادان يصنعون الحصر الممتازة من الحلفاء<sup>(5)</sup>، وكان بعض أنواع هذه الحصر رقيقاً وناعماً بحيث يمكن طيها كما تطوى الملابس، ومادة صناعة هذه الحصر أما من البردي أو القصب أو سعف النخيل فضلاً عن الحلفاء<sup>(6)</sup>.

وكانت صناعة الخيام من الصناعات المهمة، وقد أشار الجاحظ إلى صنّاع الخيام في البصرة، وهي تصنع عادةً أما من الصوف أو الشعر أو الوبر أو القطن، وتختلف أسماء الخيام حسب المادة المصنوعة منها وحسب حجمها فالخيمة المصنوعة من الصوف تسمى الخباء، والخيمة المصنوعة من القطن تسمى السراق، والخيمة المصنوعة من الشعر تسمى الفسطاط، والخيمة المصنوعة من الوبر تسمى البجاد وهناك نوع من الخيام يصنع من نوع خاص من الجلد يدعى الطراف ويستعمله الأغنياء<sup>(7)</sup>.

**ب- الزجاج:** هناك إشارات إلى وجود معامل للزجاج في البصرة<sup>(8)</sup>، وكان الزجاج يصنع في العراق عامة من نوع خاص من الصخور الرملية، وقد تفنن الصناع العرب في تحسين هذه الصناعة، فقد زادوا في نسبة

(1) ابن رسته ص 186-187

(2) ابن الفقيه ص 253

(3) النويري، نهاية الأرب (القاهرة 1955) ج 1 ص 356

(4) نفسه ج 1 ص 370

(5) المقدسي ص 118

(6) غنيمه، رزق: صناعة العباسيين، مجلة غرفة تجارة بغداد (1941) ص 580

(7) ريسلر، جاك، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون (الدار المصرية-بدون تاريخ) ص 125، الدوري: تاريخ العراق

ص 106

(8) يعقوبي: البلدان ص 264، وفي مقابلة شخصية مع الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي ذكر لي أن هناك تفاصيل

مهمة عن صناعة الزجاج في البصرة وردت في مخطوطة "الأودية المفردة" للتميمي، وهذه المخطوطة يوجد شطر

منها في المكتبة الوطنية بباريس والشطر الثاني موجود في مكتبة الكرمليين بموسكو، ولم أوفق في الحصول على

هذه المعلومات رغم الجهود الكثيرة التي بذلتها في هذا الاتجاه.



الصخور الرملية في صناعته حتى أصبح الزجاج العراقي أقوى من الزجاج الروماني (١)، وقد صنعت من هذا الزجاج الأواني والأقداح والقناديل والكؤوس (٢)، وكانت هذه المنتجات تصدر إلى الخارج حتى أنها كانت معروفة جدا في بلاد الأندلس (٣) وأوروبا (٤)، وذلك للدقة الكبيرة والتقنن والحدق في صناعتها حتى بالغ الشعراء في وضعها (٥). وقد تميزت البصرة على غيرها من الأقاليم في فن صناعة الزجاج ونحته وتقطيعه وزخرفته ولم يكتف صناعتها بتصنيع الزجاج محليا، بل استوردوا أنواعا خاصة من مادة الزجاج الخام من بعض جزر المحيط الهندي وأعادوا تصنيعها بطرق خاصة بهم، وقد أشار أبو الريحان البيروني إلى صناعة الزجاج هذه في البصرة بقوله "...والبلور على أوزان الجزع بالقياس إلى القطب لا يخالفه ويجلب من جزائر الزنج والديباجات. ويتخذ منه الأواني وغيرها وفي موضع العمل هناك مقدر يوضع عنده القطع الكبار والصغار

(١) الدوري: تاريخ العراق ص 109

(٢) ابن الفقيه ص 253

(٣) غنيمه: صناعة العباسيين ص 572

(٤) تشير المراجع الأوروبية إلى شيوع الزجاج المحزق والكريستال المسمى بالعراقي في أوروبا في القرن العاشر، لومبارد: المرجع السابق ص 116

(٥) وفي وصف الزجاج ودقته، بحيث كان تشبيههم الكؤوس بالدر وقشور اللؤلؤ، وكان المطلوب في الكؤوس هو الشفاف... قال ابن المعتز:

مزج من الذهب المذاب يضمه كأس كقشر الدرة البيضاء

وقال أبو نواس في إشارة واضحة إلى تطور صناعة الزجاج:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابهها وتقارب الأمر  
وكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وقيل أن هذه الأبيات للشاعر صاحب اسماعيل بن عباد

وقال البحتري:

يخفى الزجاجه لونها فكأنها في الكأس قائمة بغير إناء

وقال آخر:

كأن كأسهم من قشر لؤلؤة والماء من فضة والخمر من ذهب

وقال ابن المعتز أيضا:

غدايتها صفراء كرخية كأنها في كأسها تتقد  
فتحسب الماء زجاجا جرى وتحسب الأقداح ماء جمد

فيرى فيها، يهندس أحسن ما يمكن أن يعمل منها وأوفقه للنحت ويكتب على كل واحد منها، ثم تحمل إلى سائر الصناع فيعملون بقوله، ويأخذ من الأجرة أضعاف أجورهم بكنه الفرق بين العلم والعمل. هذا البلور يكون في رقعة الهواء وصفاء الماء، فإن اتفق فيه موضع منعقد ناقص الشفاف بغيم أو ثقب أخفي بنقش ناتئ أو كتابة بحسب الباقية في الصناعة والإقتدار على التقدير، فإن فشا فيه هذا التعقد حتى أبطل شفافه سمي، ريم بلور، أي وسخه... ويجلب من كشمير بلور أما أقطاع غير منحوبة وأما منحوت منها أوان وأقداح وتمائيل الشطرنج وكلاب النرد وخرز بقدر البندق لكنه يتخلف عن حسن الزنجي في الصفاء والنقاء، ولا صنعهم لها في لطافة صناعة أهل البصرة<sup>(1)</sup>.

**ج- الصناعات الأخرى:** ومن الصناعات التي ساعدت على تدعيم مركز البصرة التجاري انتشار صناعة الجواهر في العراق وقد ظهرت جماعات في البصرة اشغلت بمثل هذه الصناعة الغالية وصاروا من الخبراء فيها. وقد أقبل الخلفاء العباسيون على اللؤلؤ والياقوت الأزرق والأحمر والألماس من الجواهر، في حين أقبل أبناء الشعب من الأغنياء على الجواهر والفيروز والجزع<sup>(2)</sup>. وقد كانت البصرة معروفة أيضا بصناعة الخزف<sup>(3)</sup>، كما كانت من أهم مراكز صناعة السفن في الخليج العربي، وقد صنعت فيها أنواع السفن والقوارب الخاصة بالتجارة والسفر والنزهة والحرب ذكر المقدسي أسماء ست وثلاثين نوعا منها<sup>(4)</sup>. وكان في الأبله الكثير من دور صناعة السفن<sup>(5)</sup> كما وجدت في البصرة صناعات أخرى كصناعة الأحذية الجيدة<sup>(6)</sup>، وصناعة العطور وماء الورد ودهن

(1) البروني: الجواهر في معرفة الجواهر ص 184

(2) فيليب حتى: تاريخ العرب ج 2 ص 426-427

(3) يعقوبي، البلدان ص 264

(4) المقدسي ص 153

(5) أنظر الباب الثاني/فصل الطرق البحرية/صناعة السفن

(6) الدوري: تاريخ العراق ص 112

البنفسج<sup>(1)</sup>، وكان الإقليم المحيط بالبصرة أشهر مكان بصناعة السكر في العراق<sup>(2)</sup>.

## (2) صادرات البصرة من العراق:

ولم تقتصر صادرات البصرة على منتجاتها الصناعية فحسب، بل إنها استمدت من منتجات المدن العراقية الأخرى مدداً آخر لتجاريتها.

**أ- الكوفة:** لقد اشتهرت الكوفة بين سائر الأمصار بصناعاتها النسيجية، وكان للكوفيين مهارة خاصة في صنع الوشي وفي صنع الخز<sup>(3)</sup>، ولاقت هذه المنتجات رواجاً كبيراً في الأقطار الإسلامية، كما كانت للكوفة شهرة واسعة في صنع العمائم الكوفية المنسوجة من الخز والمشهورة بجمالها وجودتها<sup>(4)</sup>، وكذلك صنعت فيها المناديل الحريرية المستعملة لتغطية الرأس والتي لا تزال تسمى بالكوفية، ومن المنسوجات الكوفية أيضاً الثياب أو الحلل النجرانية التي نقل عرب اليمن صناعتها إلى الكوفة<sup>(5)</sup>، وصنعت الكوفة أيضاً (الخمر) التي تضعها النساء على وجوههن وكانت تصدر بكثرة إلى الحجاز<sup>(6)</sup>.

**ب- بغداد:** وقد أمدت بغداد بعد تأسيسها وازدهارها تجارة البصرة بمنتجاتها الصناعية الوفيرة، فقد كان فيها عدد كبير من المصانع لصنع الزجاج والخزف<sup>(7)</sup> وثياب القز وغيرها<sup>(8)</sup>، وكان عدد مصانع الزجاج فيها ربما يصل إلى أربعة آلاف مصنع، وثلاثين ألف مصنع لصنع الخزف<sup>(9)</sup>.

(1) الاصطخري ص 153-المقدس ص 128

(2) آدم متر، الحضارة الإسلامية ج 2 ص 228

(3) ابن الفقيه ص 252

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم ص 128

(5) الزبيدي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الكوفة ص 192

(6) المقدسي ص 33

(7) أحمد سوسة ومصطفى جواد: دليل خاطة بغداد (مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد 1958) ص 132-133

(8) المقدسي ص 128

(9) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام (مطبعة السعادة - مصر 1953) ج 2 ص 270

وتشير المصادر<sup>(١)</sup> إلى أن صناعة النسيج في بغداد ازدهرت منذ مطلع القرن الثالث الهجري، فكانت تصنع فيها المنسوجات و الثياب الحريرية الفاخرة وبألوان مختلفة، والأقمشة القطنية، والعمائم الرقيقة والمناديل بأنواعها<sup>(٢)</sup> وكانت منسوجات مصانع بغداد تصدر إلى أنحاء أخرى من العالم الإسلامي<sup>(٣)</sup> وتصنع في بغداد أيضا المنآزر النسائية<sup>(٤)</sup>. وكان لصناعة الصابون محلة خاصة ببغداد في جانب الكرخ<sup>(٥)</sup>.

**ج-الموصل:** ومهرت الموصل بصناعة الوشي والمطـارف والزرابي والأنماط والثياب المصنوعة من القطن والكتان والثياب الرفيعة<sup>(٦)</sup>، كما اشتهرت بصناعة قماش المسلمين (نسبة للموصل) المصنوع من الصوف ومن القطن ومن الحرير المختلط بخيوط الذهب<sup>(٧)</sup>، وهذا النوع من القماش معروف في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

### III-الأسواق التجارية:

لقد كانت الأسواق جزءا حيويا هاما من المدن، ومركز الفعالية الاقتصادية والاجتماعية فيها، وكثيرا ما تعتمد كمعيار أو دليل على حجم المدينة وأهميتها. وكان للأسواق في تاريخ المدن العربية الاسلامية مكانة خاصة لأنها لعبت أدوارا سياسية وثقافية واجتماعية كبيرة، فضلا عن وظائفها التجارية المباشرة، فكانت بحق واحدة "من عطاءات الحضارة العربية الأكثر تميزا"<sup>(٨)</sup>.

(١) الدمشقي الإشارة إلى محاسن التجارة (دمشق ١٣١٨هـ) ص ٢٤-٢٦

(٢) الدوري: تاريخ العراق ص ١٠١

(٣) أحمد سوسة: المرجع السابق ص ١٠٥

(٤) المقدسي: ص ١٢٨

(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (القاهرة ١٩٣١) ج ١ ص ٧٩ و ١١٣ و ١١٤

(٦) المقدسي ص ١٢٨-١٢٩، ابن رسته ص ١٨٦-١٩٢

(٧) لومبارد: المرجع السابق ص ٢٣٨

(٨) هشام جعيط، الكوفة ص ٢٨٦

من الملفت للنظر حقاً أن التخطيط الأول لمدينة البصرة في زمن عتبة بن غزوان لم يعر اهتماماً لمكان السوق<sup>(1)</sup>، بخلاف الكوفة التي أقيمت فيها الأسواق منذ البداية<sup>(2)</sup>، وتأكيداً لذلك فإنه حتى في ولاية أبي موسى الأشعري (17-29هـ/637-649م) حينما أعيد تخطيط المدينة للمرة الثانية لم يحدد كذلك مكان معين للسوق، ويبدو أن المدينة ظلت بدون أسواق فترة من الزمن، أو ربما اقتصررت أسواقها على سوق المربد المعروف الذي يقع في أطراف المدينة من جهة الغرب، وكانت تجري فيه عمليات التبادل البضائعي، وهذا السوق ظهر بشكل عفوي في المدينة لأنه كان في الأصل سوقاً للابل<sup>(3)</sup>.

لقد أشرنا في موضع سابق إلى أن بدايات التحول الحضري في البصرة بدأت مع ولاية عبد الله بن عامر (25-36هـ/645-656م)، وكان هذا الوالي أول من فكر في تأسيس الأسواق المنظمة وشجع الناس على اتخاذها، وبادر لإقامة أول سوق في المدينة، وهي السوق المعروف بـ(سوق عبد الله) بالقرب من النهر المنسوب إلى والدته (نهر أم عبد الله)، وقد بقيت هذه السوق تلعب دوراً مهماً في المدينة حتى فترة ولاية بلال بن أبي بردة (109-118هـ/727-736م)<sup>(4)</sup>.

أما الإنجاز الأهم في مجال تأسيس الأسواق في البصرة فقد تحقق في زمن ولاية زياد بن أبيه (45-53هـ)، الذي تحولت البصرة في عهده إلى مدينة حقيقية، فازدحمت بالسكان وتوسع عمرانها ونشاطها الإقتصادي، إذ شجع على إقامة الأسواق. وكانت أهم إنجازاته في هذا الميدان، بناء المجمع التجاري الكبير المعروف بمدينة الرزق<sup>(5)</sup>، وهي عبارة عن مجموعة أسواق تضمها دار واسعة<sup>(6)</sup>.

(1) دائرة المعارف الإسلامية-مقال البصرة ص 300.

(2) هشام جعيط، الكوفة ص 286.

(3) الأفغاني، سعيد: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام (بيروت 1974) ص 408.

(4) البلاذري، فتوح ص 457، عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن الإسلامية، (البصرة 1986) ص 141.

(5) ابن الفقيه ص 191.

(6) صالح العلي، خطط البصرة (مجلة سومر/1952) ص 294-295.

وبحلول القرن الثاني للهجرة وبعد أن تحولت البصرة من مدينة معسكر إلى مدينة تجارية، وازداد نشاطها التجاري واجتذبت الأيدي العاملة والتجار من مختلف البلدان، تعددت أسواقها، ونظمت وفقا للمهن والبضائع والصناعات . وكان الإجراء الذي اتخذه الوالي بلال بن أبي بردة سنة 110هـ/728م هو نقل سوق عبد الله من موقعه الى نهر بلال، لأنه كان يقع في منطقة سكنية مزدحمة ولم يعد قابلا للتوسع، وجعل السوق الجديد على جانبي هذا النهر، وصار واحدا من أسواق البصرة المهمة -التي سنذكرها بعد حين - كما نقل بعض الأسواق الصغيرة الى مواقع أخرى أكثر ملائمة<sup>(1)</sup>.

### (1) تنظيم السوق:

ليست لدينا تفاصيل واضحة عن النظم الداخلية لأسواق البصرة خاصة في المرحلة المبكرة من تأسيسها<sup>(2)</sup>. ويستدل من قول للخليفة عمر أوره الطبري بأن الأسواق "على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه الى بيته أو يفرغ من بيعه"<sup>(3)</sup>، بأن الباعة كانوا يجلسون على الأرض لعرض بضاعتهم، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا فقد اتخذ أهل الأسواق حوانيت خاصة بهم، ثم أخذ أصحاب كل مهنة يتجمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعيا صغيرا داخل السوق الكبير، وتختلف أهمية هذه الأسواق الفرعية بحسب نوع المهنة وعدد العاملين فيها<sup>(4)</sup>. ومع ذلك فقد استمرت ظاهرة البيع على الأرض لبعض صغار الباعة، الذين كانوا يؤجرون قطعة من الأرض أمام أحد الحوانيت في السوق<sup>(5)</sup>. وكان السوق

(1) البلاذري: فتوح ص 447. تاريخ الخلفاء المؤرخ مجهول (موسكو 1967) ص 415

(2) أن هيكل السوق في البصرة في هذه المرحلة المبكرة من التاريخ العربي الإسلامي لا يختلف كثيرا عن أسواق

المدن قبل الثورة الصناعية، واستنادا إلى:

GIDEON, SJOBERG: The pre-industrial city, Past and Present, (Texas 1960) p.201

ان معظم باعة المفرد كانوا يعملون على نطاق ضيق مع كمية قليلة من البضاعة وكان العدد الأكبر منهم يفتش

الأرض لعرض بضاعته: أنظر: Naji, op.cit, p 300

(3) الطبري ج 4 ص 45-46

(4) صالح العلي: التنظيمات ص 267

(5) الجاحظ: البحلاء ص 120

خاضعا لرقابة موظف يدعى العامل على السوق<sup>(١)</sup>، يعين من قبل الوالي ويتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية ويساعده في تنفيذ مهمته عدد من الأعوان. وكان عليه أن ينظر في مقاعد الأسواق فيقرر منها مالا ضرر فيه على المارة وعلى نظام السوق<sup>(٢)</sup> فضلا عن مهام تنظيمية أخرى.

ومن الملفت للنظر أن الحوانيت عندما ظهرت في تلك الأسواق لم تكن لها أبواب أو حواجز تحمي البضاعة، وكان صاحب الحانوت يكتفي بتغطية بضاعته بالحصر فقط، مما شجع في فترات ضعف السلطة - على انشار عمليات السطو والصوصية، وخاصة خلال ولاية عبد الله بن عامر الثانية (41-54هـ/661-665م)<sup>(٣)</sup>. وعندما قدم زياد بن أبيه واليا على البصرة سنة 54هـ أمر أصحاب الدكاكين في السوق بوضع ألواح خشبية أو حواجز من القصب على أبواب محلاتهم<sup>(٤)</sup>. أما استعمال الأقفال فقد ظهر في وقت لاحق، حتى وجد بعدئذ سوق خاص لصانعتها وبيعها في البصرة<sup>(٥)</sup>.

وتعطينا قصص ألف ليلة وليلة صور طريفة ومفيدة عن الحياة والنظم التي كانت عليها أسواق البصرة التجارية<sup>(٦)</sup> خلال تلك الحقبة. فتحدثت عن السوق أو الأسواق بشكل مطلق أحيانا<sup>(٧)</sup>، وفي أحيان أخرى كان يذكر إسم السوق.

فقد ذكر إسم سوق العلافين ورئيسه الملقب

(1) يعتبر الأستاذ الدكتور صالح العلي هذه الوظيفة أصل وظيفته المختسب التي ظهرت في التاريخ الإسلامي لأول

مرة في مطلع القرن الثاني للهجرة (سنة 103هـ)، التنظيمات ص 268، أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة

"حسبه" المجلد السابع، ص 379، مقال (زامباور E.V.Zambaur)

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية (القاهرة 1966) ص 258

(3) الطبري ج 5 ص 222

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء (القاهرة 1964) ص 147

(5) التنوخي، الفرج بعد الشدة (القاهرة 1955) ج 2 ص 336

(6) دائرة المعارف الإسلامية - مقال البصرة - مجلد 3 ص 297.

(7) مجهول: ألف ليلة وليلة، (القاهرة 1252هـ) طبعة بولاق، مجلدين أعادت طبعها بالأوفست مكتبة المتنى

(بغداد)، مجلد 1 ص 106، مجلد 2 ص 296، مجلد 2 ص 555

بالشريف<sup>(١)</sup>، وسوق الجواهر ورئيسه المعروف بالمعلم عبيد<sup>(٢)</sup>. وقد أشارت هذه القصص الى أسواق البصرة التي كانت تباع فيها الجوارى بواسطة النخاسين<sup>(٣)</sup>، كما كان لمثل هؤلاء النخاسين بيوت خاصة بالبصرة يبيعون فيها العبيد ويذهب إليها من يريد الشراء<sup>(٤)</sup>. ويوجد في السوق أيضا موقف للعمال الذين يشتغلون بأجور يومية<sup>(٥)</sup> وتوجد في الأسواق أفران الخبز ومحلات الزيت ودكاكين الشراب ومحلات القهوة<sup>(٦)</sup>. كما توجد محلات تبيع الأقمشة المستوردة بواسطة التجار منها الهندية والرومية والخراسانية<sup>(٧)</sup>. وأشارت تلك القصص الى محلات الخياطة التي كان بعضها كبيرا ويتكون من مجموعة غرف، وهناك الخياط الخاص لكبار القوم في المدينة<sup>(٨)</sup>، كما وجدت في هذه الأسواق محلات الحلاقة<sup>(٩)</sup> ومحلات صنع الحلوى التي كثيرا ما ترتبطت بحياكة بعض المؤامرات<sup>(١٠)</sup>، وذكرت أيضا محلات صناعة النحاس ومحلات صياغة الذهب<sup>(١١)</sup>، وكان أصحاب الحوانيت الكبيرة في السوق يعينون لهم كاتباً يضبط الحسابات ويدير الحانوت أثناء غياب صاحبه، ويتقاضى أجراً يومياً، حدد بدرهم واحد يومياً وأحياناً بدرهمين<sup>(١٢)</sup>.

لقد كانت التجارة مركزها الأسواق شأنها شأن الصناعة، وكانت كل فئة من التجار تجلس في مكان معين، وكانت العادة أن

(١) ألف ليلة وليلة مجلد ١ ص 477

(٢) نفس المصدر مجلد ١ ص 557

(٣) نفس المصدر مجلد ١ ص 564

(٤) نفس المصدر مجلد ١ ص 642

(٥) نفس المصدر مجلد ١ ص 581

(٦) نفس المصدر مجلد ١ ص 555

(٧) نفس المصدر مجلد ١ ص 578

(٨) نفس المصدر مجلد 2 ص 538-537

(٩) نفس المصدر مجلد 2 ص 557-556

(١٠) نفس المصدر مجلد 2 ص 537

(١١) نفس المصدر مجلد 2 ص 295-294

(١٢) نفس المصدر مجلد 2 ص 460



هؤلاء يمكنون في محلاتهم ولا يذهبون الى بيوتهم إلا مساء، حيث يأكلون في أحد المطاعم أو يجلبون شيئاً الى دكاكينهم، وكان لهذا المطاعم مواضع فوق الدكاكين ، فيها الموائد والحصر والمري والخدم والطشوت والأبارق.<sup>(١)</sup>

## (2) أهم أسواق البصرة:

إن أسواق البصرة التجارية الكبيرة التي ذكرتها المصادر هي أربعة أسواق: سوق المريد، وسوق الكلاء، والسوق الكبير وسوق باب الجامع- أو باب عثمان.

أسواق المريد: لم يشتهر سوق في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط كما اشتهر المريد، فقد وصف بعكاظ العرب في الإسلام، وقيل فيه "العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمريد عين البصرة"<sup>(٢)</sup> وذهب البعض الى القول "لم تكن البصرة في نظر العرب شيئاً لولا المريد"<sup>(٣)</sup> فهو المركز التجاري العظيم، وهو المركز الثقافي العظيم أيضاً، ملتقى طرق التجارة البرية ومجمع الحجاج فيه أشهر محلات البصرة وأسواقها وصناعاتها، وفيه تنتظم حلقات الشعراء، وبه يلتقي اللغويون بالأعراب لتلقف الفصاحة شفاهاً<sup>(٤)</sup>. وهو من جانب آخر ساحة من ساحات الحروب، فقد كان مسرحاً لأكبر فتنة في التاريخ العربي الإسلامي لقد كان باختصار ميدان أدب وتجارة وحرب وهو مرآة عكست حياة العرب قبل الإسلام، وصورت حضارتهم في الإسلام، واستطاع أن يصهر الحياتين معا في بوتقة واحدة وصاغ منها تلك الحلية العجيبة<sup>(٥)</sup>.

(1) آدم متر: المرجع السابق ج 2 ص 283

(2) النعالي: ثمار القلوب ص 128

(3) شارل بيلا: الجاحظ ص 40

(4) البلاذري: أنساب الإشراف (القاهرة 1957) ج 1 ص 495

(5) الأفغاني: أسواق العرب ص 394

لعب المربد دورا حيويا في حياة البصرة الإقتصادية وفي تدعيم مكانتها التجارية على مدى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، فقد كان مركز التجارة البرية ومحطة وقوف القوافل المغادرة والقادمة من وإلى البصرة<sup>(1)</sup>، وقد مر ظهوره وتطوره بعدة مراحل. فقد نشأ محطا للبدو يبيعون فيه الجمال عند الباب الغربي للبصرة<sup>(2)</sup>. ثم تطور بسرعة حتى أصبح في نهاية العصر الراشدي سوقا تباع فيه التمور والأسلحة والجمال وغنائم الحرب<sup>(3)</sup>. وفي العصر الأموي، وبعد أن ظهرت الميول والأهواء والتيارات السياسية والفكرية أصبح المربد ناديا سياسيا يتبارى فيه كبار الشعراء، فتغنى فيه جرير والأخطل بأمجاد الأمويين، وتغنى فيه الفرزدق بشرف البيت الهاشمي، وتجمع فيه وفود القبائل لحضور تلك المنافرات الأدبية<sup>(4)</sup>، في نفس الوقت الذي أصبح فيه ملتقى التبادل البضائعي بين أهل البصرة وسكان الصحراء الغربية المجاورة التي كون البصريون مع أهلها أقلاما أقدم علاقتها بم التجارة<sup>(5)</sup>.

(1) لذلك أطلق على البصرة لقب (مطرح البر) المقدسي ص 128، شارل بيلا، الجاحظ ص 318

(2) من المرجح أن هذا السوق كان موجودا قبل الإسلام، وأن السلطات الساسانية في سعيها لدرء خطر البدو من العرب وأبعادهم عن الاتصال المباشر بالمنطقة المأهولة قد حددت مكان السوق على طرف الصحراء بهذه الكيفية، ومن ثم عرفت هذه المنطقة بـ"باب البادية"، عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأموي ص 12-13 أنظر: المقدسي ص 117، ومن

معاني المربد : هو المكان الذي يجلس فيه الإبل والماشية : أنظر شارل بيلا : الجاحظ ص 40-41

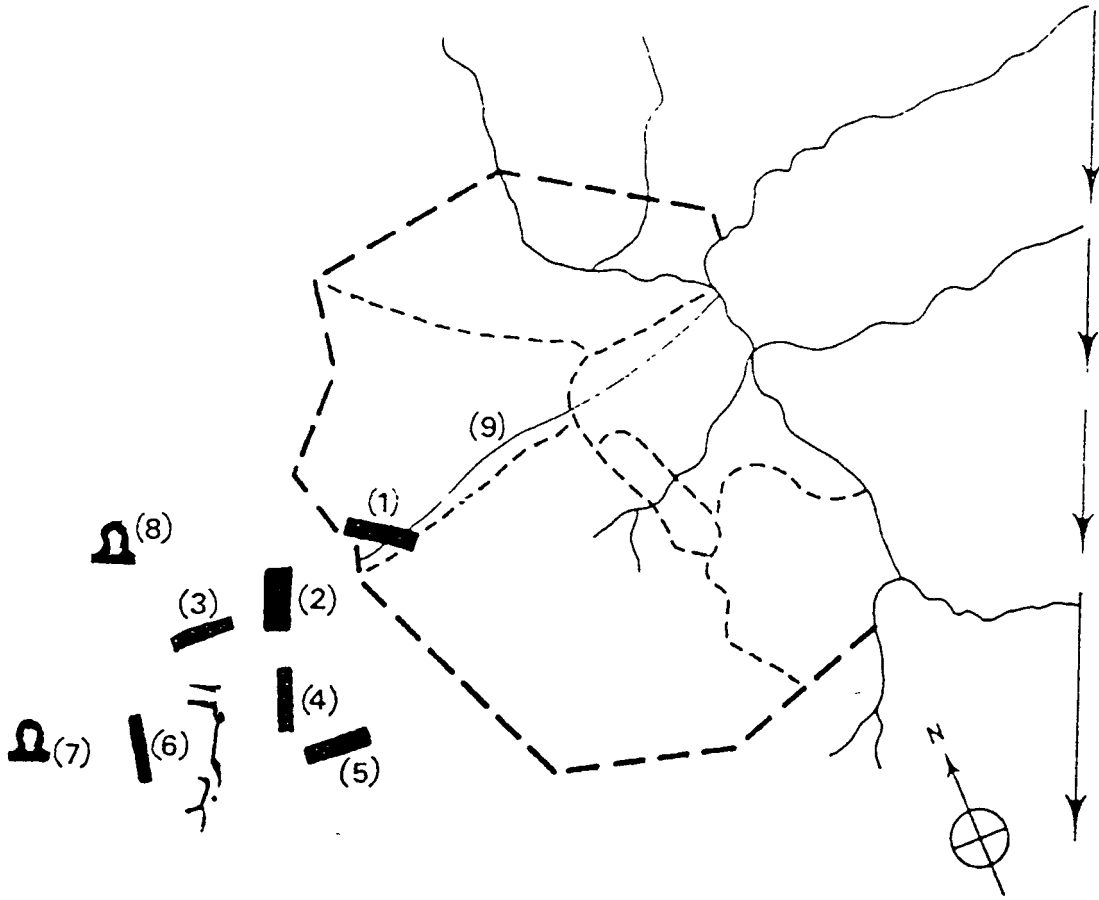
(3) الدوري: تاريخ العراق الإقتصادي ص 135

(4) زكي: الحياة الأدبية في البصرة ص 48، لسترنج : يلدان الخلافة الشرقية ص 65، احسان النص: العصبة القليلة

وأثرها في الشعر الأموي (بيروت 1963) 397-461، الدوري : تاريخ العراق ص 136.

(5) صالح العلي: تنظيمات ص 266

<مخطط تقريبي لمواقع الأسواق في المربد>



شكل رقم (2)

- 1- سوق النعاعين
- 2- سوق الإبل
- 3- سوق التناين
- 4- سوق العطارين
- 5- سوق الوزانيين
- 6- سوق الصبّاب
- 7- مرقد الحسن النصري
- 8- مرقد الربير بن العوام
- 9- سكة المربد

المرجع :

Journal of the Economic and Social History  
of the Orient Vol XXIV, Part III, p. 303

وقد بلغ المربد عصره الذهبي في القرن الثالث الهجري وأصبح مركزاً نشيطاً لفعالية تجارية جاوزت حدود البصرة<sup>(1)</sup>، فضلاً عن ازدهار دورة الثقافي والاجتماعي، فكان موطن أنس ومرح، وساحة للفاعليات الأدبية، يقصده النحاة وأهل اللغة للقاء الأعراب الفصحاء والتحاور معهم بشؤون اللغة<sup>(2)</sup> وما كان قد دخلها من غريب اللفظ بسبب اختلاط العرب بالأعاجم في المدينة. وكان في المربد أسواق فرعية متخصصة عديدة أهمها: سوق الإبل: وهو أول الأسواق وبه سمي المربد مربداً، لأنهم كانوا يجلسون فيه الإبل، وهناك سوق الضباب، وسوق الوراقين، وهناك حوانيت الأرز والشواء والحجامين<sup>(3)</sup> كما كان المربد مركزاً أنشئت فيه بعض المصانع<sup>(4)</sup>.

**ب- سوق باب الجامع:** ويسمى أيضاً سوق باب عثمان نسبة إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي (ت 55هـ/675م)، وكان في الأصل مجرد دار يملكها عبد الله بن عامر، وهبها بدوره إلى عثمان الثقفي<sup>(5)</sup> ثم اشتراها منه عبيد الله بن زياد وأعاد بناءها وسماها (البيضاء)<sup>(6)</sup> ثم صارت سوقاً يدعى سوق باب الجامع<sup>(7)</sup> لأنه يقع أمام المسجد الجامع من جهته الشمالية الغربية وتنتشر محلات هذا السوق بمحاذاة سكة المربد المعروفة<sup>(8)</sup> وكان مركزاً تجارياً واسعاً يحتوي على عدد من الأسواق الصغيرة المتخصصة أشهرها سوق الرقيق (سوق النخاسين) الذائع الصيت حيث يباع العبيد<sup>(9)</sup>

(1) شارل بيلا: الجاحظ ص 40

(2) الدوري: تاريخ العراق ص 136، زكي الحياة الأدبية ص 49

(3) أنظر: يوسف ناصر العلي: أسواق البصرة في القرنين الثالث والرابع مجلة الخليج العربي السنة الأولى / العدد الأول

(1973 ص 179)

(4) صالح العلي: التنظيمات ص 266

(5) البلاذري: فتوح 432.

(6) ابن الفقيه ص 191، الطبري ج 5 ص 522

(7) المقدسي ص 117

(8) الطبري ج 9 ص 485، البلاذري: فتوح ص 432

(9) الجاحظ: البغال، نشرها شارل بيلا (القاهرة 1955) ص 29-30

والجواري (1)، وهناك باعة النبيذ والدقيق والكتب والأقمشة (2)، كما يوجد فيه سوق للصرافين (3).

**ج-السوق الكبير:** ويعرف كذلك باسم سوق نهر بلال لأنه يمتد على جانبي هذا النهر، في الموضع الذي يلتقي فيه نهر معقل بنهر ابن عمر وهذا الموقع أعطاه أهمية تجارية كبيرة لأنه يقع في نهاية الطريق التجاري بين بغداد والبصرة (4)، كما أعطاه مجالا للتوسع حتى أصبح فيما بعد يضم أكثر أسواق البصرة حيوية وشهرة، وكان أهمها سوق الصيرفة، وهو واحد من ثلاثة أسواق تقوم بأعمال الصيرفة في المدينة (5)، وهناك سوق البلوريين، وهم صناع الزجاج الذي تجلب موارده الأولية من جزر المحيط الهندي، وتصنع منه القوارير والأواني والأقداح (6). وكان صانعو الزجاج في البصرة يتمتعون بشهرة واسعة في العصر الوسيط، وقد استعان بهم الخليفة المعتصم عندما شرع ببناء سامراء (7). كما يوجد في هذا السوق باعة اللؤلؤ والحلي والمجوهرات والأحجار الكريمة (8) التي اشتهرت بها تجارة البصرة وكانت من أهم عوامل ازدهارها لما تحققه من أرباح وفيرة، وسمعة تجارية طيبة نفذت الى أصقاع بعيدة.

**د-سوق الكلاء:** يعد هذا السوق من أهم مرافئ التجارة النهرية في البصرة (٩) بالإضافة الى وظيفته كسوق ومركز تجاري متكامل وهو عبارة عن مجموعة أسواق تمتد على جانبي نهر الفيض (9) أهمها: سوق العلافين

(1) ألف ليلة وليلة، مجلد 1 ص 564

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 415

(3) ناصري خسرو، سفرنا مه ص 146

(4) انظر: الباب الثاني، فصل الطرق النهرية

(5) ناصري خسرو ص 146

(6) البيروني: الجماهر ص 184 - وقد سبقت الإشارة الى ذلك في موضوع الصناعة

(7) اليعقوبي: البلدان 264 (طبع مع الاعلاق النفيسة)

(8) المقدسي 128.

(٩) سيجته مفصلاً كمرفأ تجاري نهري في الباب الثاني/فصل الطرق النهرية

(9) الطبري ج 9 ص 486

(باعة أعلاف الماشية) وبه دار أبي الهذيل العلاف (1) كما أن باعة الحصر والتمور والقصب والصناعات المعتمدة على سعف النخيل يمارسون نشاطهم قرب هذا السوق (2) ، وهناك سوق القصابين ويسمى رحبة القصابين وهو سوق كبير قرب قناة الفيض (3) ، وبقربه يقع سوق الأغنام التي نقلها بلال بن أبي بردة من باب عثمان الى رحبة القصابين هذه (4) .

وفي مجمع الكلاء هذا سوق له صلة بطبيعة البيئة البصرية وهو سوق (القيارين) الذين يمتنون بيع القار (5) الذي يستخدم في طلاء السفن والأحواض والصهاريج، ونسبت لهم مشرعة القيار التي ورد ذكرها في حوادث حركة الزنج (6) ، وبالقرب من هذا السوق هناك سوق آخر مشابه في التخصص هو سوق (القافلايين)، وهم المختصون بشراء السفن القديمة وتفكيكها وبيع أخشابها وقيرها وحديد (7) كما يوجد في هذا المجمع التجاري سوق أصحاب السقط وهم باعة السلع القديمة والرخيصة (8)، وكان تجمع هؤلاء قرب مقبرة بني حصن المجاورة لسوق الخالين (9). وأخيرا لابد من الإشارة الى أن مرفأ الكلاء هذا كان محطة اتصال بين التجارة البحرية-النهرية والتجارة البرية فقد كان محل تنزيل البضائع من السفن حيث يتم تحميلها على ظهور الإبل الى المربرد مركز التجارة البرية (10) .

(1) المرتضى: طبقات المعتزلة (المطبعة الكاثوليكية/بيروت) ص 44

(2) الجاحظ: الخلاء ص 125، 142، 143 يعقوبي البلدان 264

(3) الطبري ج 6 ص 67

(4) الأصفهاني: حلية الأولياء (القاهرة 1938) ج 6 ص 228، السيوطي، ص 415

(5) الجاحظ: الخلاء ص 143

(6) الطبري: ج 9 ص 437

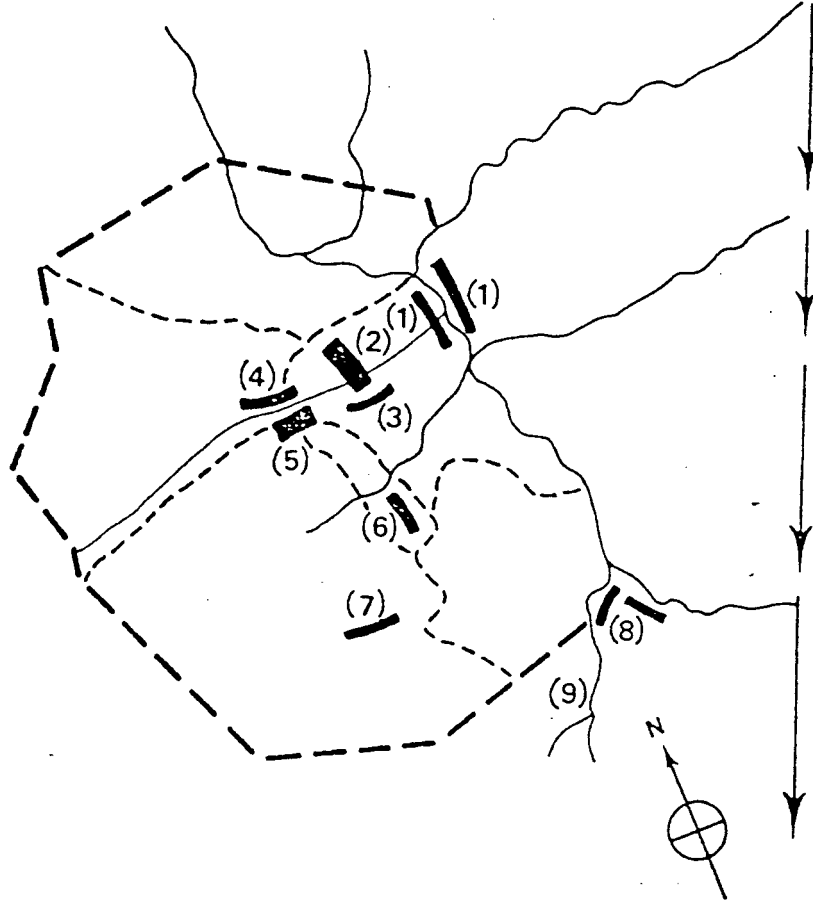
(7) يوسف العلي: المقال المذكور ص 182

(8) الجاحظ: الخلاء ص 31

(9) نفس المصدر ص 115، الطبري ج 6 ص 67

(10) ماسنيون: خطط الكوفة، ترجمة المصعبي ص 37

«مخطط تقريبي لمواقع أسواق باب الجامع والسوق الكبير»



شكل رقم (3)

1- سوق نهر بلال

2- السوق القديمة

3- سوق الشعارين

4- سوق باب الجامع (أسواق عثمان)

5- المسجد الجامع

6- أسواق بني يشكر

7- سوق الطحانيين

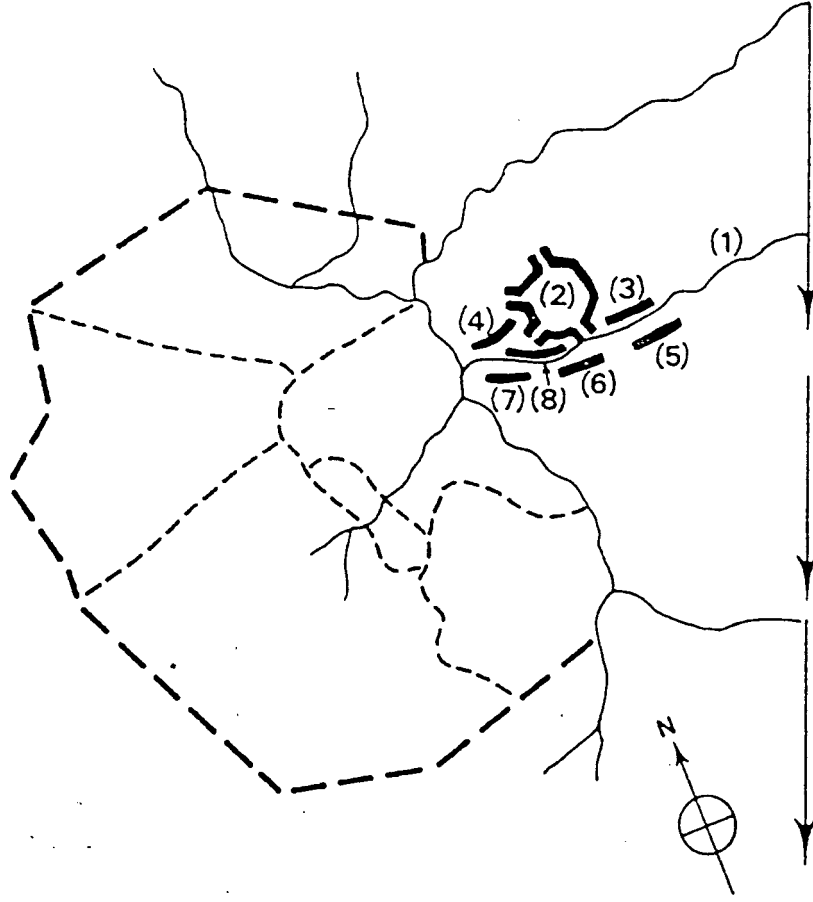
8- البارجاه (سوق السمك)

9- نهر سيحان

المرجع :-

*Journal of the Economic and Social History  
of the Orient Vol. XXIV, Part III, p.307*

<<مخطط لمواقع أسواق الكلاء>>



شكل رقم (4)

- 1- نهر الفيض
- 2- مدينة الرزق
- 3- سوق أصحاب السقط
- 4- سوق الدقيق
- 5- الحبل
- 6- سوق القصابين
- 7- سوق العلافين
- 8- سوق الخلالين

المرجع :-

Journal of the Economic and Social History  
of the Orient Vol XXIV, Part III p.305.



وبالإضافة الى المراكز التجارية المذكورة وأسواقها الثانوية المتفرعة عنها، هناك عدد من الاسواق الصغيرة المستقلة، ومن المعتقد أنها تقع ضمن حدود خطط البصرة الخمس (الأخماس)، لم نتطرق إليها لقلّة أهميتها في الفعالية التجارية وهي أسواق يمكن أن توجد في أي مدينة أو مركز حضري.

### (3) الرقابة على الأسواق:

على الرغم من أن قواعد الشرع واضحة ومعروفة لدى غالبية المتعاملين بالأمور التجارية، وأن القرآن الكريم<sup>(1)</sup>، أكد على ضرورة ضبط الموازين والمكاييل وعلى الأمانة والصدق في الكيل والوزن حفظاً لمصالح المتعاملين مع السوق من عامة الناس، لكن حب المال وطبيعة النشاط التجاري لعبا دوراً سلبياً في سلوك البعض من أهل السوق، الأمر الذي تطلب تنظيم الأمور الإقتصادية والمالية في الأسواق بانظمة وقوانين ضابطة وعدم ترك التعامل بها وفق هوى النفس ومصالح التجار وأهل السوق. وقد وضعت الأسواق تحت رقابة الدولة وإشرافها المباشر من خلال موظف مختص هو العامل على السوق، تلك الوظيفة التي تطورت بعدئذ إلى وظيفة المحتسب المعروفة في النظام القضائي للدولة العربية الإسلامية، والتي فرضتها جملة من الإعتبارات منها : الإقتصادية والاجتماعية والدينية والمالية ذات الصلة الوثيقة بحياة المجتمع.

ولما كان القرآن الكريم قد أكد على أهمية هذا الأمر، فقد انبرى الفقهاء لوضع أدق الشروط التي تفي بتلك المتطلبات وكان الرسول (ص) والخلفاء الراشدون يباشرون بأنفسهم مراقبة الأسواق في صدر الإسلام وقد راقب الرسول الاسواق بنفسه، كما استعمل سعد بن العاص على سوق مكة، واستعمل عمر بن الخطاب على سوق المدينة، وذكر أن عمر ابن

(1) سورة المطففين الآية : 1-4 ، سورة الرحمان، الآية 7-10، سورة الشعراء: الآية 181.

خلافته كان يطوف في الأسواق لمراقبة الأمور الجارية فيها (1)، وكذلك فعل علي بن أبي طالب (2).

إن أول ذكر لوظيفة العامل على السوق أو المحتسب في البصرة وردت في عهد زياد بن أبيه (3)، فقد ذكر المدائني أن الجعد النحري كان محتسبا على سوق البصرة إبان ولاية زياد عليها، وأن لديه معاونين وأعوانا يساعدونه في مهمته هذه (4). وفي زمن الحجاج كان جرير بن بهيس مكلفا بهذا المنصب (5).

ووظيفة المحتسب لم تكن منصبا قضائيا بالمعنى الدقيق لنظر المظالم أو القضاء العادي وإنما هو منصب ديني خلقي أساسه "الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله" (6)، ولأجل أن تضمن الدولة هذا الغرض، كانت تعهد بهذه الوظيفة إلى أناس يمتلكون مواصفات خاصة، كالورع والتقوى، وعلي أن يكون رجلا، مسلما، بالغاً قادراً، حراً، عدلاً، ذا رأي وصراحة، لا يميل ولا يرتشي من شيمته الرفق ولين القول، وأن يكون على معرفة بوحدات الوزن والكيل والأذرع المستعملة في السوق (7).

وخلال العصر العباسي شددت الدولة رقابتها على الأسواق. وتبلور نظام الحسبة بشكل واضح منذ خلافة المهدي (158-169م)، بعد أن انتظمت أحوال المدن، وما ترتب على ذلك من توسع الأسواق وتخصصها، وازدهار التجارة. وصارت وظيفة المحتسب من وظائف الدولة الكبيرة

(1) الطبري: ج4، ص190، ابن كثير: البدية والنهاية (القاهرة 1932) ج7، ص134.

(2) ابن سعد: الطبقات (بيروت 1957) ج3 ص18.

(3) صالح العلي: التنظيمات ص263.

(4) وكيع: أخبار القضاة ج1 ص357.

(5) صالح العلي: التنظيمات ص330.

(6) المارودي: الأحكام السلطانية (بيروت 1990) ص391، قال تعالى (ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) سورة آل عمران، الآية 104. دائرة المعارف الإسلامية، مادة

"حسبة" مقال "زامباور"، ج7 ص379.

(7) المارودي: الأحكام السلطانية ص392.

يتقاضى من يتولاها مائتي دينار شهريا (1)، ويشرف على جهاز كبير من العاملين بلغت نفقاته أربعمئة وثلاثين ألفا وأربعمئة وثلاثين دينارا (2) وقد تجاوزت مهمات المحتسب المعنى الديني والخلقي إلى واجبات عملية مادية ترعى مصالح الناس في الأسواق بشكل خاص. وصار من مهام المحتسب تسعير بعض السلع والمواد الأساسية التي تشكل قوت الشعب، ومنع بيع القمح إلى تاجر له سوابق في الإحتكار لأن في ذلك ضررا بالناس (3)، وكذلك إلزام الباعة أن يتخذوا الأرطال والأواقي من الحديد، وأن تختتم بختم الدولة ويعاد فحصها بين حين وآخر. واستهدف نظام الحسبة أيضا منع الغش في الصناعة الانتاج ومنع التحايل والتدليس والبخس في الكيل والمعاملات (4). ومنذ أن استقرت وظيفة المحتسب جرى تصنيف العديد من المؤلفات الخاصة بهذه الوظيفة، كان الغرض منها مساعدة المحتسب في تأدية واجباته ومراقبة الأسواق (5).

#### (4) الخانات والفنادق:

من المنشآت ذات الصلة بالأسواق في المدن التجارية الكبيرة الخانات، وبحكم أهمية البصرة التجارية وسعة نشاطها في هذا الميدان فقد وجد فيها العديد من هذه الخانات وهي بمثابة الفنادق أو النزل الآن مع بعض الاختلاف. هذه الخانات يملكها عادة التجار الكبار وتستعمل مخزنا للبضائع وفي نفس الوقت فندقا لإيواء التجار الغرباء. ويقوم صاحب الخان بتقديم الخدمات للنزيل ولحيوانه الذي يستخدمه وتسهيل مهماته الأخرى (6)، مقابل ثمن يدفعه على عدد الليالي التي يمكث فيها (7) وغالبا ما تكون هذه

(1) مسكويه: تحارب الأمم (القاهرة 1915) ج 1 ص 217.

(2) ابن الجوزي: المنتظم ج 6 ص 70.

(3) المسوردي: ص 404.

(4) الشيرزي: عبد الرحمان بن نصر. نهاية الرتبة في طلب الحسبة (القاهرة 1946 ص 19).

(5) منها: الرتبة في طلب الحسبة للموردي، والحسبة في الاسلام لابن تيميه، ونهاية الرتبة لابن بسام، ونهاية الرتبة للشيرزي، وغيرها.

(6) ألف ليلة وليلة مجلد 1 ص 55.

(7) الجاحظ: الخلاء ص 82.

الخانات في نفس الأسواق الكبيرة، حيث كان التجار الغرباء يضعون بضائعهم في أسفلها، وينامون في أعلاها ويقفلون أبواب غرفهم بأقفال رومية. ومن أشهر تلك الخانات والمخازن الكبرى في البصرة هما (دار البطيخ) <sup>(1)</sup> ودار الزبير <sup>(2)</sup>، وورد في حكايات ألف ليلة أسماء بعض هذه الخانات في البصرة مثل خان حمدان الذي عرف صاحبه بالطمع <sup>(3)</sup> وخان السريجية <sup>(4)</sup>. وكانت هناك غرف على شاطئ البحر يؤجرها التجار بصورة خاصة من أجل استقبال المراكب التي تحمل متاجرهم <sup>(5)</sup>.

لقد غيرت مجمل تلك التطورات الاقتصادية وجه البصرة، وحولتها من منطقة طفيلية <sup>(6)</sup> إلى مدينة منتجة، وانتقل سكانها العرب من مجرد مقاتلين متفرغين للعمل الحربي، يعتمدون أساساً على ما كانوا يستلمونه من عطاء ورازق منتظمة، إلى مجتمع منتج، يزرع ويصنع ويفيض إنتاجه أحياناً عن حاجته، وبذلك تهيأت المدينة لأن تلعب دوراً في المجال الاقتصادي، مستفيدة من موقعها الجغرافي، ومن عوامل أخرى ساهمت وبدرجات متفاوتة في ظهور وتعظيم دورها التجاري ابتداءً من مطلع القرن الثاني الهجري.

(1) آدم متر: الحضارة الإسلامية ج 2 ص 284.

(2) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء ص 630.

(3) ألف ليلة وليلة مجلد 2 ص 565-566.

(4) نفس المصدر مجلد 2 ص 531.

(5) نفس المصدر مجلد 1 ص 109.

(6) يذكر الدكتور صالح لأحمد العلي في معرض حديثه عن الحياة الاقتصادية في البصرة خلال القرن الأول الهجري، أن (...معظم الحبوب والفضة والمواشي كانت تستوردها الدولة وتوزعها على السكان العرب مجاناً)، التنظيمات ص 263.

## الفصل الرابع

### ظهور الوظيفة التجارية للبصرة

\*مقدمة

#### I - عوامل ظهور الوظيفة التجارية للبصرة

- 1- الموقع الجغرافي
- 2- التطورات الإدارية في العصر الأموي
- 3- تأسيس بغداد
- 4- سياسة الدولة العباسية الاقتصادية
- 5- تحول الطريق التجاري من البحر الأحمر إلى الخليج العربي

#### II - التجار والشركات التجارية

- 1- أصناف التجار
- 2- الشركات التجارية

#### III - الائتمنان والصيرفة

- 1- الائتمنان
- 2- الصيرفة

## \* المقدمة

يقول المؤرخ توينبي "من النادر أن يجد المرء مدينة في أي وقت ومكان هي تجارية فقط أو مدينة سياسية فقط أو مدينة عسكرية فقط أو مدينة دينية فقط" (١)، ويقول لسنر (٢): "إذا كانت المدن هي المراكز التي تيسر استقرار الناس وتوسع العلاقات بينهم وإنماء النظم الاجتماعية والسياسية والإدارية والاقتصادية وبالتالي ازدهار الحضارة وتقدمها في نشاط الفكر وإبداعاته فإن النظام الحضري في العالم الإسلامي الوسيط كان مثاليا وواقعيا حيث ازدهر النحو والأدب في المدن والبلدان كالبصرة والكوفة مقترنا بالتطورات العميقة الأخرى". وبصدد تطور البصرة من معسكر إلى مدينة تجارية كبيرة، لا بد أن نشير إلى أن هذه الصفة التجارية باعتبارها الميزة التي اشتهرت بها وكانت من أبرز سماتها على مدى ثلاثة قرون تقريبا، لم تظهر بشكل فعال في أول الأمر، أي في العصرين الراشدي والأموي، بل ظهرت في العصر العباسي بعد انتقال مركز الدولة العربية إلى العراق. وقد تضافرت جملة من الأسباب والعوامل ساعدت البصرة على هذا التحول، بعضها له صلة بالخصائص الذاتية للمدينة، وبعضها عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية استجبت وخدمت البصرة خدمة فعالة جعلتها تقفز قفزات حضارية واسعة مستفيدة من موقعها الجغرافي المطل على الخليج العربي بواسطة نهرها شط العرب، ومدينتها التاريخية القديمة -الأبله-، وكذلك هيمنتها على الطرق البرية الآتية من الشرق والغرب وبالعكس (٣). فانتقلت المدينة من مجرد معسكر قبلي بسيط إلى ميناء العراق الرئيسي الذي يتم عن طريقه الإتصال بالعالم الخارجي. وتوسعت علاقاتها التجارية، وأدى ذلك إلى تغيرات اجتماعية واقتصادية متميزة. وظهرت طبقة نشيطة من التجار الأثرياء، ونشأت مؤسسات تجارية معقدة كالأسواق والصارفة والبنوك ونظم ائتمان متطورة. ولم يقتصر دور البصرة كمدينة مستوردة فحسب بل استطاعت أيضا أن تقدم

(1) Arnold Toynbee: *Cities on the Move* (Oxford 1970) P:153

(2) لسنر، يعقوب: *خطط بغداد في العصور العباسية الأولى*، ترجمة صالح أحمد العلي. (بغداد 1984) ص 133

(3) انظر: الأصبخري ص 27-28 المقدسي ص 108، 251، ابن رسته ص 182.

عددا من مواردها الزراعية ومنتجاتها الصناعية أساسا للتصدير إلى مختلف الأرجاء. وأصبحت مشهورة بخزها وبزها وتمورها وبصناعاتها النسيجية الأخرى (1). فضلا عن كونها أصبحت مستودعا لتجارات الشرق في عموم منطقة الخليج العربي (2).

## I- عوامل ظهور الوظيفة التجارية للبصرة:

إن أبرز العوامل التي ساعدت على ظهور وظيفة البصرة التجارية هي:

### 1- الموقع الجغرافي: (3)

وهو أول العوامل التي كانت وراء ازدهار البصرة التجاري ولا بد من الإشارة إلى أن موقعها هذا كان قد نقل إليها إرثا تجاريا بحكم قربها من ميناء الأبله التاريخي الذي ارتبط بها بعدئذ بقناة ملاحية ثم صار جزءا من ضواحيها. لقد ورثت البصرة -من دون شك- إرث الأبله التجاري العريق، سواء من حيث استثمار الموقع الجغرافي المطل على دجلة والمتصل بتجارة الشرق عبر الخليج العربي، أو من حيث الخبرة في ميدان التجارة والأعمال المرتبطة بها لدى سكانه وتمرسهم بتلك الأنشطة وبصناعة وإصلاح السفن. وكذلك من حيث شهرة هذا الميناء وسمعته التجارية العالمية التي ترجع إلى عدة قرون. ولكي نقف على حقيقة دور البصرة التجاري، حري بنا أن نعرف بالأبله ودورها التجاري العريق.

### الأبله ودورها التجاري:

تعد الأبله من أقدم الموانئ في الطرف الشمالي للخليج العربي وتاريخها -من دون شك- أقدم وأبعد من تاريخ البصرة (4). غير أننا لم نجد

(1) صالح العلي: الأنسجة في القرنين الأول والثاني للهجرة، مجلة الأبحاث، ج 14 (194) ص 589.

(2) مقبول أحمد: العلاقات التجارية بين الهند والعرب (من القرن العشر قبل الميلاد إلى العصر الحديث) مجلة ثقافة

الهند (يوليو 1965) ص 33.

(3) لقد سبق الحديث عنه في الباب الأول، وسنبعث أهميته من الناحية التجارية وعلاقاته بطرق التجارة العالمية في

الباب الثاني -طرق التجارة ومنافذها- ولا نرى ضرورة لتكرار الحديث عنه في هذا الفصل.

(4) ياقوت: معجم البلدان: ج 1 ص 89-90.

من الإشارات التاريخية ما يعطينا زمنا واضحا لتأسيسها ولا من أسسها. فكل ما يوضحه ابن عساكر عنها هو قوله: "إن المدن القديمة الكعبة ومصر ودمشق والجزيرة والأبله..."<sup>(١)</sup> وقد حاول العلامة جواد علي أن يعود بأصل كلمة "أبله" إلى أصل عراقي قديم، حيث أشير إليها بكلمة Ubulum في الكتابات الأكديّة. وقد وردت الكلمة ضمن أسماء القبائل التي كانت تقطن المنطقة الجنوبية من العراق أيام سرجون الأكدي<sup>(٢)</sup>. كما ورد ذكرها كمدينة أكديّة تقع على الساحل الشمالي للخليج في نقوش نرام-سين وهو أشهر أبناء سرجون الأول ملك أكد<sup>(٣)</sup>. ولكن من المرجح أن كلمة الأبله معربة عن الاسم اليوناني أبو لوجوس Apologos وهو ذلك المرفأ التجاري الذي يرجع تاريخه إلى عهد الإسكندر الأكبر<sup>(٤)</sup>، وقد زارها نيارخوس Nearchus وكان قائدا لأسطول الإسكندر في المائة الرابعة قبل الميلاد ووصفها بأنها مستودع تجارات الخليج<sup>(٥)</sup>. ويقول ياقوت "لم تكن البصرة وما حولها إلا الأبله فإنها من بناء ذي القرنين<sup>(٦)</sup>". ولكن الأبله كانت موجودة قبل فتح الإسكندر كما يشير الطبري<sup>(٧)</sup>. ويعتقد أن الإسكندر جدد بناءها وتكاثر اليونانيون فيها ومن هنا نسبت إليه<sup>(٨)</sup>.

وطوال العهد الروماني قامت الأبله بدور الوسيط في التجارة البحرية حيث تصدر منها السلع إلى اليمن وإلى بريجاز أي (Broach) الآن، (وهي بروص عند العرب) في خليج كمباي بالهند لتعود من هناك محملة بالنحاس والأبنوس وأنواع الخشب<sup>(٩)</sup>. وكانت الإجراءات التي أقدم عليها الإسكندر إرضاء لطموحاته في التوسع واهتمامه الخاص بمنطقة الخليج واستجاره الفينيقيين للعمل في الملاحة وبناء السفن وتحسين

(1) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد (1951) ج 1 ص 11.

(2) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 2 ص 20-21.

(3) حوراني: العرب والملاحه في المحيط الهندي ص 143.

(4) صالح العلي: التنظيمات ص 232.

(5) كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس و كوركس عواد مطبعة الرابطة - بغداد 1954 ص 68.

(6) معجم البلدان ج 1 ص 90.

(7) الطبري ج 1 ص 558.

(8) زكي، أحمد كمال: الحياة الأدبية في البصرة ص 56.

(9) حوراني: العرب والملاحه ص 49.



الملاححة في نهر الفرات قد أدت إلى تنشيط التجارة من خلال مرفأ الأبله (1) وقد ذكر كرسنسن الأبله خلال دراسته للفترة الساسانية (2)، إذ أعيد بناؤها في زمن كسرى أردشير (3)، وأصبحت المخرج الرئيسي على الخليج لتجارة دولة فارس (4)، وظلت قائمة حتى العصور الإسلامية.

إن الأهمية التي تمتعت بها الأبله متأية من موقعها الجغرافي في نهاية الرأس الجنوبي لنهري دجلة والفرات الصالحين للملاححة، وعلى الزاوية الشمالية للخليج العربي (5). ونظرا لمركزها التجاري وعلاقاتها الواسعة بهذا المجال مع تجارة المحيط الهندي فقد كانت تسمى أرض الهند (6). ويروى أنه عندما سقطت الأبله في يد العرب في خلافة عمر بن الخطاب وجدوا بها سفنا صينية (7) ووصفت بأنها (مرفأ السفن من الصين وما دونها) (8).

إن هذا الموقع جعل من الأبله محطة مهمة ووسيلة في طرق التجارة العالمية القديمة. فقد كانت السفن الآتية من الهند تفرغ حمولتها في ميناء الأبله، ثم تجري عملية المسافنة (9) مع سفن أخرى خاصة لتسحن البضائع عن طريق دجلة ثم الفرات إلى سورية فالبحر الأبيض المتوسط أو إلى فلسطين ومصر (10). أو تنقل هذه البضائع من الأبله على الإبل سالكالطريق البري إلى الشام وموانئ البحر المتوسط عبر العراق (11). في

(1) حوراني ص 43.

(2) إيران في عهد الساسانيين ص 82.

(3) حوراني ص 206، ويذكر ولسن: أن تأسيس الأبله كان سنة 220م، الخليج العربي، ترجمة عبد القادر يوسف ص 128، والمرجع أنه تاريخ إعادة البناء لأن تاريخها أقدم من ذلك.

(4) G. Wiet: *Les Marchands d'épice*, [Le Caire 1955] P.82

(5) ياقوت معجم البلدان ج 1 ص 97.

(6) الطبري ج 3 ص 343، المسعودي: التنبيه والإشراف 357-358.

(7) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي ج 1 ص 40.

(8) الطبري: ج 3 ص 594.

(9) المسافنة: نقل البضائع من سفينة إلى أخرى.

(10) غنيمه، يوسف رزق الله: *تجارة العراق قديما وحديثا* (بغداد 1922) ص 29. زكي: *الحياة الأدبية في البصرة*

ص 69.

(11) صالح العلي: *محاضرات في تاريخ العرب* (بغداد 1955) ج 1 ص 26-27.

نفس الوقت كانت تجري في هذا الميناء عمليات تفريغ بضائع التجارة القادمة من الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر وشرق إفريقيا فينقل قسم منها إلى العراق والقسم الآخر ينقل إلى الهند وبلاد فارس (١).

وقد مر ميناء الأبله بفترة من الركود التجاري في القرن الثاني الميلادي إبان العهد البرثي، لأن البرثيين لم يكن لهم إهتمام بالخليج العربي بقدر ما انصب إهتمامهم على طريق الحرير البري الذي يربط الصين مع دول الشرق الأدنى (٢). ولكنه عاد للإنتعاش من جديد في العصر الساساني وأصبح مرفأً لتجارتهم، كما زادت أهميته بالنسبة إليهم من الناحية العسكرية، فقد اهتم الساسانيون بتحصينه وإقامة المسالح فيه (٣)، وصار يؤدي لهم وظيفة مزدوجة تجارية وعسكرية في آن واحد (٤). فكان فيه يوم وصول جيش عتبة بن غزوان خمسمائة من الأساورة يحمونه، فقاتلهم عتبة وهزمهم (٥) وكان ذلك أول اتصال للمسلمين بهذه المنطقة.

ومن المؤكد أن دور الأبله بدأ يتضاءل بعد تأسيس البصرة واتخاذها مركزاً إدارياً وعسكرياً، واستحواذ المدينة الجديدة على الأنشطة التجارية النهرية والبحرية. فأصبحت الأبله ميناء ثانوياً للتجار البصريين (٦) ورصيفاً للسفن الكبيرة التي لا يمكنها الدخول إلى البصرة عبر نهري الأبله والمعقل، وقد أدى ذلك بمرور الزمن إلى التقليل من أهميتها، وتضاءل حجم سكانها الذين رحلوا إلى البصرة للقيام بالأعمال التجارية.

ومع التحولات التي أدت إلى ازدهار النشاط التجاري عبر الخليج العربي اعتباراً من منتصف القرن الثاني للهجرة، تبدلت أحوال الأبله وعادت للتحسن من جديد مع تضخم الدور التجاري للبصرة. صحيح أن

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص 53.

(٢) البوريني: أحمد قاسم: الإمارات السبع على الساحل الأخضر ص 51.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص 475، معجم البلدان ج 1 ص 97.

(٤) ابن سعيد، علي بن موسى: كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت 1970). ص 48.

(٥) البلاذري: فتوح ص 419.

(٦) ألف ليلة وليلة مجلد 1 ص 109، ابن الغملاس ص 3.

الأبلّة لم تتخذ كمحطة تجارية لتفريغ الحمولات والبضائع وبيع السلع التجارية وإنما كانت البصرة هي التي تقوم بهذه الوظيفة، ولكن وقوعها على الجانب الشمالي من نهر الأبلّة، وعلى زاوية ملتقاء بدجلة - شط العرب<sup>(١)</sup> الذي كان صالحاً لسير السفن الكبيرة. ثم إنها مرفأً يشتمل على مركز لبناء السفن وإصلاحها<sup>(٢)</sup>، جعلها محطة مهمة على طريق الملاحة النهرية - البرية، فضلاً عن كونها فرضة أو ميناء السفن التجارية البحرية الكبيرة التي لا تستطيع الوصول إلى البصرة، إذ أن نهر الأبلّة - كما أشرنا - لا يصلح لسير السفن الكبيرة، لذلك فإن أهمية الأبلّة كميناء تجاري أخذت تتصاعد مرة أخرى بتصاعد الأنشطة التجارية عبر الخليج، وقد زار الأبلّة سنة 295هـ/908م تاجر بحار من الأندلس، يعرف باسم محمد بن معاوية المرواني، وينحدر من سلالة الخلفاء الأمويين بالأندلس وتحدث عن ازدهارها التجاري، وذكر أنه وصل إليها بتجارة يقدر ثمنها بثلاثين ألف دينار وتحتوي على سلع هامة من سلع الهند<sup>(٣)</sup>. وأصبحت الأبلّة تابعة إدارياً لمدينة البصرة، رغم ورود تعبيرات إدارية في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي حول وجود مسؤول إداري فيها يسمى (صاحب الأبلّة) فكان عليها سنة 255هـ/868م محمد بن أبي عون ثم أبو الأحوص الباهلي<sup>(٤)</sup>، ويبدو أن، هذين الواليين كانا قد عينا على الأبلّة لأن الزنج كانوا قد سيطروا على البصرة، ولم نسمع بعد هذا التاريخ عن وجود وال مستقل للأبلّة، خاصة بعد نجاح الدولة في القضاء على حركة الزنج<sup>(٥)</sup>. وظلت الأبلّة تشارك البصرة في أهميتها التجارية وفي استقبال السفن القادمة من الشرق عبر الخليج وفي استقبال التجار العاملين في أعالي البحار<sup>(٦)</sup>. وعلى الرغم من أننا لا نملك إحصائية دقيقة عن سكان الأبلّة، لكنه يمكن القول بأن أعداد غير قليلة من أثرياء البصرة وتجارها قد اتخذوا

(1) خليفة بن خياط، تاريخ ص 98، المقدسي 118.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ص 117، 204.

(3) ولسن: الخليج العربي ص 127.

(4) الطبري ج 9 ص 415، 437، وهناك إشارات إلى أن أبا الأحوص كان والياً على البصرة قبيل اندلاع حركة

الزنج، ابن الغضائري ص 22.

(5) عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن الإسلامية (البصرة 1986) ص 149.

(6) الأقطر: المسالك ص 81.

دورهم ومساكنهم فيها لما توفره لهم من طمأنينة وراحة بال من خطر وهجمات القرامطة والقبائل البدوية، وبذلك استعادت الأبله مكانتها السابقة كميناء تجاري واشتهرت ببعض صناعاتها كصناعة الأنسجة الكتانية والعمائم الجميلة<sup>(١)</sup>.

وقد نشرت دراسات حديثة لتعيين مكان الأبله القديم<sup>(٢)</sup> والمرجح أن موقعها كان في نفس مركز مدينة البصرة الحديثة -العشار- وأن نهر الأبله هو نهر العشار الحالي الذي يبعد عن البصرة القديمة أربعة فراسخ (24 كيلومتر)<sup>(٣)</sup> تقريباً.

## (2) التطورات الإدارية في العهد الأموي:

شهدت البصرة في العصر الأموي إجراءات إدارية مهمة. وضعتها على طريق التقدم الحضاري من جميع الوجوه، وخاصة في زمن ولاتها البارزين كزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف الثقفي. وساعدت تلك السياسة على تهيئة البصرة لدورها الجديد. فقد خضعت في عهد زياد (45-53هـ/665-672م) وابنه عبيد الله (53-64هـ/672-683م) إلى إجراءات إدارية حازمة غايتها وضع حد لكل أنواع التمرد والخروج على السلطة المركزية، وكان هذا يعني في المقام الأول إخضاع القبائل ومنعها من إحياء عاداتها القديمة في تحدي السلطة وتجاهل قوانين الدولة. ولم يكن تحقيق ذلك بالأمر السهل. فقد كانت خطبة زياد بن أبيه الشهيرة (البتراء)<sup>(٤)</sup> دليلاً على مدى الفوضى والعجز الإداري التام الذي صارت عليه البصرة بعد وقعة الجمل (36هـ/657م)، وخلال ولاية عبد الله بن عامر الثانية (41-44هـ/661-664م) التي اتسمت بالفوضى وانتشار الفساد<sup>(٥)</sup>.

(1) المقدسي: ص 128.

(2) عبد القادر باش عيان، البصرة في أدوارها التاريخية (بغداد 1961)، الدكتور مصطفى جواد: الأبله ونهرها العشار (مجلة سومر 9 ص 63 1953). والدكتور محمد طارق الكاتب: شط العرب في التاريخ (البصرة 1970).

(3) انظر: صالح العلي خطط البصرة ص 27، 161.

(4) أنساب الأشراف ج 4 (1)، تحقيق احسان عباس (بيروت 1979) ص 206-207.

(5) الطبري ج 5 ص 95.

بدأ زياد يفرض الحظر التام في المدينة والإحتكام إلى السيف في حالة كل مخالفة (١). وقد أتى هذا العنف الإداري الذي مارسه زياد أكله مع الزمن، إذ ساعدت العشرين عاما من الرقابة الإدارية الصارمة على وضع البصرة على طريق التطور في ظل الإستقرار والأمن الداخلي (٢). ولما كان زياد يدير مقاطعات واسعة وغنية تتبع إداريا إلى البصرة وهي خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان (٣) فقد أصبح مسؤولا عن مقاومة الأخطار الخارجية التي كانت تهدد مناطق الخليج العربي والبصرة وأهمها خطر الخوارج (٤)، وحاول تطهير الخليج العربي من القرصان وبنى أسطولا لهذا الغرض، واتخذت الدولة من عبادان قاعدة للقضاء على نشاطهم الذي اشتد على إثر موت يزيد وأخذوا يهددون سير السفن التجارية وقد انتدب لهذه المهمة أحد القواد العرب الشجعان وهو عباد بن الحصين (٥).

ولما تولى الحجاج ولاية البصرة والكوفة كان أول عمل اهتم به هو توفير الأمان في الطرق للمسافرين والتجار، ومنع قطاع الطرق من ممارسة نشاطهم في هذا المجال (٦). كما اهتم بنشر الأمن على طول الطريق البحري إلى الهند فيذكر أنه جهز حملة ضد الديبل ملبيا في ذلك نداء من نساء التجار العرب الذين اعتدي عليهم هناك (٧).

وعلى الرغم من أن الحجاج قد اختار العودة إلى الفتوحات في المشرق كعلاج لحالة التكدر العام التي كانت سائدة لدى أهل العراق آنذا بسبب علاقة هؤلاء بالسلطة الأموية، وكمبرر للإبقاء على العطاء وعلى وضع المقاتلين في الكوفة والبصرة (٨) فإنه اتخذ من توطيد السلطة

(1) أنساب الأشراف ج 4 (1) ص 207، الطبري ج 5 ص 234-235.

(2) هشام جعيط: الكوفة ص 320، قاسم عون: المرجع السابق ص 27.

(3) الجاحظ: البيان والبيان ج 2 ص 61، ابن قتيبة: عيون الأخبار ج 5 ص 241.

(4) الطبري ج 5 ص 112، ابن خياط: تاريخ ج 1 ص 194.

(5) صالح العلي: التنظيمات ص 233.

(6) الجاحظ: البيان والبيان ج 1 ص 274.

(7) البلاذري: فتوح البلدان ص 435-436.

(8) هشام جعيط: الكوفة ص 278.

الإسلامية هناك مبررا لقراره لأن الأمن فيها أصبح مفقودا خاصة في الأطراف النائية وأصبح اللصوص وقطاع الطرق يعبثون بالسفن والقوافل ويتمتعون بحماية ملك الديبل الذي أظهر استخفافا بسلطة الدولة الإسلامية<sup>(1)</sup>.

وقد قامت الدولة أيضا بعدد من المشاريع التي سهلت التجارة، فحفرت الأنهار والترع وأقامت الجسور وحفرت الآبار على الطرق التي كانت تفيد الجيوش والتجار<sup>(2)</sup>، ونظمت النقل النهري والبحري ونشرت الأمن والنظام في الطرق والمسالك<sup>(3)</sup>. خاصة أيام ولاية خالد القسري على العراق (105-120هـ/723-738م) التي سادها جو من السلم الداخلي، وشهد النشاط الإقتصادي توسعا ملحوظا، وعادت المسالك التجارية القديمة إلى نشاطها بعد انتهاء عاصفة الفتح، وظهرت مسالك جديدة، واتسع حجم المبادلات في كافة المستويات حيث بدأت الإمبراطورية الإسلامية تجني ثمار توحيد المساحات الشاسعة تحت سيادتها، فتزايد حجم الإستهلاك وتنوع، وبدأ الناس يميلون إلى حياة الترف والبذخ<sup>(4)</sup>.

### (3) تأسيس بغداد:

جاء اتخاذ العباسيين العراق مركزا لخلافتهم، واختيار الخليفة أبي جعفر المنصور بناء عاصمته بغداد على ضفاف نهر دجلة سنة 145هـ/762م<sup>(5)</sup> عاملا مهما كان له كبير الأثر في إزدهار تجارة البصرة وتطورها. وفي تدفق سلع التجارة الشرقية الغنية عن طريقها إلى بغداد التي صارت بعد وقت قليل من إنشائها عاصمة الدنيا وقلب العالم، والمدينة التجارية الأولى في عالم العصور الوسطى.

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص441، التنوخي: الفرج بعد الشدة 332.

(2) الإصطخري ص81، ابن خردادبة ص146.

(3) الإصطخري ص57، ابن حوقل ص212، متر: الحضارة الإسلامية ج2 ص334.

(4) حسين الزبيدي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (بغداد 1970) ص161 هشام جعيط، الكوفة، ص279.

(5) الطبري ج7 ص674.

وإذا كانت الأسباب السياسية والعسكرية هي التي دفعت العباسيين إلى عدم الإقامة في الشام، واتخاذ العراق مقراً لدولتهم، فإن تأسيس بغداد واختيار موقعها هذا كعاصمة تحكمت فيه على الأغلب عوامل اقتصادية بحتة، وذلك للإفادة من ثرائه ومقوماته التجارية في دعم سلطانهم<sup>(1)</sup>، وقد أعلن ذلك صراحة الخليفة أبو جعفر المنصور معبراً عن إيمانه بأهمية تلك المقومات وضرورة توفرها في المكان الذي يصلح للعاصمة فقال لأصحابه:

"... وإنما أريد موضعاً يرتفق الناس به، ويوافقهم مع موافقته لي، ولا تغلوا عليهم فيه الأسعار، ولا تشتد فيه المؤونة، فإني إن أقمت في موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار، وقلت المادة واشتدت المؤونة، وشق ذلك على الناس، وقد مررت في طريقي على موضع فيه مجتمعة هذه الخصال فأنا نازل فيه"<sup>(2)</sup>، ولم يكن هذا الموقع غير قرية بغداد إذ ذاك. ويمكن ملاحظة اهتمامات العباسيين التجارية في اختيارهم موقع بغداد هذا إذ تشير المصادر<sup>(3)</sup> إلى أن لموقعها القديم خلفية اقتصادية فقد كان سوقاً عظيمة تقام كل شهر ويتوافد عليها التجار من كل مكان<sup>(4)</sup>.

وذكر الطبري قصة اختيار موضع بغداد وكيف أن المنصور راح يستأنس برأي نوي الشأن والخبرة من السكان المحليين القاطنين قرب بغداد ليتأكد من مزاياها الاقتصادية ومدى اتفاق آرائهم مع تصوراته لأنهم الأدرى بمزايا ناحيتهم التجارية، فينقل لنا على لسان أحد كبار ملاكي الأراضي المحليين قوله للخليفة المنصور محبذاً اختياره لهذا المكان كعاصمة "... وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة (نهر) تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات، وتجيئك طرائف مصر والشام، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في تامرا حتى تصل إلى الزاب، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل ودجلة، وأنت بين أنهار لا

(1) لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس (بغداد 1936) ص 12، أنظر: دائرة المعارف

الإسلامية، مادة "بغداد" المجلد 4، ص 3-11، مقال (سترك M.Streck)

(2) الطبري: ج 7 ص 615-616.

(3) نفسه: ج 7 ص 618.

(4) لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية ص 17-19.

يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ... وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله وأنت قريب من البر والبحر والجبل" (1).

وما هي إلا سنوات حتى أصبحت بغداد مدينة عظيمة بفضل ارتباطها بالبصرة والخليج العربي عن طريق شبكة من الطرق النهرية والبرية، وكان نظام الملاحة في نهري دجلة والفرات الذي جرى تطويره في هذا العهد قد جعل بغداد على اتصال مباشر بالخليج عن طريق البصرة، ساعد في ذلك أن حوض نهر الفرات يرتفع قليلاً عن نهر دجلة مما جعل سير السفن في الأنهار المتفرعة من الفرات إلى الشرق سهلاً، ولا يصعب عليها أن تعود إلى الغرب، وقد استغل العباسيون هذه الظاهرة في ربط بغداد بطرق التجارة المتفرعة من الخليج أو المؤدية إليه عبر البصرة مما دعم أسواقها التجارية (2). وأصبح مجتمع بغداد بفضل ذلك ذا طابع تجاري يصف اليعقوبي طبيعة تكوينه بقوله:

"إنّقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف، فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا تأتيها التجارات والمير برا وبحرا بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير الإسلام، فأنه يحمل إليها من الهند والسند والصين وسائر البلدان حتى يكون فيها من البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها، جمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت بها بركات العالم" (3).

لقد كان تأسيس بغداد وتطورها حدثاً هاماً في تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، فلأول مرة في التاريخ ارتبطت عاصمة

(1) الطبري: ج 7 ص 616-617.

(2) لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية ص 70-71 آدم متر: المرجع السابق ج 2 ص 388.

(3) اليعقوبي: البلدان (طبعة النجف 1957) ص 2-4.



الدولة العربية الإسلامية مباشرة بطرق مائية مع الخليج العربي وعالم المحيط الهندي عن طريق دجلة والفرات الذين يجريان معا صوب الخليج، وقد أدى ذلك إلى تطور البصرة لتصبح في القرون التالية بمثابة ليفربول بالنسبة للعرب حيث كانت محطة للتصدير والاستيراد من الشرق والغرب، ومستودعا للبضائع الواردة من الهند والصين وإفريقيا الشرقية وغيرها من البلدان ومنها كانت توزع إلى شتى المراكز التجارية والموانئ الشرقية عبر سيرا ف (1).

إن أهمية أي ميناء تجاري تأتي عادة من الدور الذي يلعبه موقعه، إضافة إلى سعة الظهير الذي يخدمه ذلك الميناء، وما من شك أن تأسيس بغداد ومن بعدها سامراء وما صار إليه المجتمع العراقي من تطور وارتفاع في مستوى المعيشة مثل ظهيرا واسعا ساهم في تنمية وظيفة البصرة التجارية كميناء يربط العراق بالعالم الخارجي.

#### (4) سياسية الدولة العباسية الاقتصادية:

هناك من يركز على أهمية العامل السياسي في تطور المدن، موضحا بأن أي مدينة حتى التي تحمل صفة المدن التجارية ليس بمقدورها الديمومة والبقاء والإزدهار دون تأييد مباشر أو غير مباشر من الدولة، ودون أن يكون هناك نظام سياسي قوي يدعمها (2)، وكان ابن خلدون المؤرخ العربي قد سبق الجميع بزمان غير قصير في إبراز العامل السياسي في نشوء وارتفاع المدن.

لقد حرص بنو العباس منذ أن أقاموا خلافتهم على أن يجعلوا من العراق مركز الثقل الاقتصادي لهذه الخلافة كما جعلوه مركز النقل السياسي (3)، وأدركوا منذ البداية أن التجارة لا يكون لها دورها المؤثر

(1) مقبول أحمد العلاقات التجارية بين الهند والعرب ص 33

(2) GIDEON.SJOBERG Op Cit P 6 7.8

(3) G WIET L, Egypte Arabe (Paris 1937) T IV pp 166 167

والمسيطر والمربح دون أن تنشط على الصعيد الخارجي. ويبدو أن هذا الاتجاه ظهر قبيل نهاية العصر الأموي، إلا أن العباسيين عملوا على دعمه وتشجيعه بحكم الحاجة لتمويل مجتمعهم الجديد إلى درجة أصبح معها النشاط التجاري يشكل جانباً مهماً من مجمل الفعاليات الاقتصادية<sup>(١)</sup>. ولقد نجحت الخلافة العباسية في عصرها الأول في دعم سياستها الاقتصادية هذه، وانعكس ذلك النجاح على انتعاش تجارة الخليج العربي وازدهار البصرة التي تدفقت عليها السلع والمتاجر وحلت البصرة والأبلة وسيراف محل مينائي عدن والقلزم (موانئ البحر الأحمر) في استقبال سفن الشرق الأقصى، وحصلت الدولة العباسية من جراء ذلك على أرباح طائلة من عائدات سلع الشرق الغنية المتداولة بكثرة في التجارة العالمية آنذاك. وقد انعكست آثار هذا الثراء على طبيعة الحياة في الدولة والمجتمع، وعاشت الخلافة العباسية أرقى مراحل ازدهارها خاصة في عصرها الأول، يعلق آدم منتز على ذلك بقوله: "... كانت التجارة آنذاك مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام، وصارت هي السيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، واخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية حتى كانت بغداد تقرر الأسعار للعالم في ذلك العصر، في البضائع الكمالية على الأقل".<sup>(٢)</sup>

لقد صار النشاط التجاري الطابع المميز للمجتمع العباسي<sup>(٣)</sup>، مما يعكس جانباً من اهتمام الدولة بالتجارة والتجار وتشجيع الأعمال التجارية، وخاصة خلال المراحل الأولى لدولتهم<sup>(٤)</sup>، ويرجع هذا الاهتمام بالدرجة الأساس إلى القفزات والتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي أخذت تظهر على طبيعة تكوين المجتمع حينذاك، وتزايد حاجات وطبقات الطبقات الغنية والمترفة إلى المواد والبضائع الكمالية الأجنبية. كما أن الخلفاء العباسيين الأوائل قد أدركوا منذ البداية أن الإقتصاد هو العمود الفقري لقوة الدولة

(١) عبد العزيز الدوري مقدمة في تاريخ العراق الاقتصادي، ط 2 (بيروت 1978) ص 67

(٢) الحصارة الإسلامية ج 2 ص 365

(٣) اليقوي البلدان ص 462

(٤) عبد العزيز الدوري العصر العباسي الأول (بعداد 1945) ص 48 ولم يكن فائد دعوة العباسيين والسني حمل

لقب (وربر آل محمد) أي سلمة الحلال غير تاجر حل، حواتين دراسات ص 137

ولبناء الحضارة، ولابد من تنظيم الموارد الاقتصادية واستثمارها على أفضل وجه، وكان أبو جعفر المنصور - وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية - قد حدد منهاجاً اقتصادياً واضحاً لدولته من خلال رؤيته الخاصة للمال وكيف يكون في خدمة الدولة بقوله "لولا الأموال حصن السلطان، ودعامة للدين والدنيا وعزمها وزينتها، مابت ليلة وأنا أحرز ديناراً ولا درهماً، لما أجد لبذل المال من اللذازة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة" (١)، ونتيجة لدقة المنصور ومتابعته لشؤون الاقتصاد ومحاسبته عماله حساباً عسيراً من أجل توفير أكثر ما يمكن من الأموال، حتى الدائق وهو أصغر أجزاء العملة صار يدعى بسبب ذلك بـ -أبا الدوائيق- (٢).

ولما كانت التجارة تلقى نشاطاً أكثر في ظل السلم واستتباب الأمن، فقد تهيأت لها في ظل الدولة العباسية قوة عسكرية وسياسية أدت إلى ازدهارها واتساعها مع مختلف المناطق، وجاء اهتمام العباسيين بحماية تجارة الدولة في المكانة الأولى ضمن سياسة الحماية الاقتصادية، ذلك لأن التجارة كانت تمثل عصب اقتصاد الدولة الإسلامية آنذاك، بما كانت توفره هذه التجارة من موارد طائلة تشكل جزءاً كبيراً من دخلها العام (٣). وقد ارتبطت حماية تجارة الدولة بأمن الطرق البرية والنهرية والبحرية على امتداد حدود الدولة الإسلامية الشاسعة، وبشكل خاص طريق الخليج العربي لأن التجارة البحرية خلال السنوات الهادئة من الخلافة العباسية تمر بالدرجة الأولى من البصرة، كما أن التجارة النهرية بين البصرة وبغداد كانت مزدهرة للغاية، وأصبح ميناء البصرة في العصر العباسي الأول أهم موانئ العالم التجارية، وأصبحت البصرة في عهد الرشيد تحتل المرتبة الثانية بعد العاصمة بغداد (٤).

ومن اهتمامات العباسيين التجارية قيامهم بتحويل بعض السفن الحربية إلى سفن تجارية في أوقات الحاجة (٥)، واهتموا أيضاً بتنظيم

(١) الطبري ح ٨ ص ٨٨

(٢) حس إبراهيم حس تاريخ الإسلام السياسي (القاهرة ١٩٦٤) ح ٢ ص ٣٥

(٣) عطية القوسي تجارة الخليج العربي بين المد والجزر (الكويت ١٩٨٠) ص ٨

(٤) سعيد الأفعاني أسواق العرب ص ٤٠١، ٤٠٢

(٥) شاذكر مصطفى في التاريخ العباسي (دمشق ١٩٥٧) ص ٧٨

المكوس والضرائب المفروضة على التجارة المنقولة برا وبحرا، وأنشأوا الدواوين الخاصة بالتجارة وأقاموا المراسد لجباية الضرائب وحماية الطريق وكان أهمها مرصد الخليج عند عبادان في مدخل مدينة البصرة (1). ولأهمية المنطقة من الناحية التجارية، ولضمان الإشراف المباشر عليها فقد سعى العباسيون الى توحيد البصرة مع المناطق المطلة على الخليج العربي في وحدة إدارية واقتصادية واحدة، ففي خلافة الرشيد تولى -المعلّى- وهو من كبار القادة البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين والغوص (2) كما جمعت كذلك لمحمد بن سليمان بن علي، وجمعت لعمارة بن حمزة (3) وكذلك للحسن بن سهل وداود بن ماسحور في زمن المأمون، وحضيت البصرة برعاية خاصة من لدن الدولة العباسية في هذا العهد بالذات (مطلع القرن الثالث الهجري) حيث كانت تعيش ذروة ازدهارها التجاري وعطائها الفكري (4).

ومن العوامل التي ساعدت على قيام تجارة بحرية واسعة بين البصرة وموانئ الهند والصين بداية من القرن الثاني للهجرة وجود إمبراطوريتين عظيمتين على طرفي الطريق التجاري البحري، هما إمبراطورية الإسلام وعاصمتها بغداد والتي امتدت في العصر العباسي الأول من الأندلس غربا الى السند شرقا، وإمبراطورية الصين في عهد أسرة تانغ (Tang) التي حكمت الصين ما يقرب من ثلاثة قرون، وقد حرص العباسيون على إقامة علاقات تجارية ودبلوماسية متينة معها بلغت ذروتها زمن المنصور والرشيد (5).

(1) ناصري خسرو: سفرنامه: ترجمة يحيى الخشاب (بيروت 1970) ص 152

(2) كان للغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي إمارة خاصة.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (القاهرة 1931) ج 1 ص 96

(4) ذكر أن المأمون أمر سنة 210 للهجرة بإحصاء من كان في البصرة من المدرسين والعلماء وطلبة العلم فظهر فيها سبعمائة مدرس وأحد عشر ألف من طلبة العلوم، فأمر أن يخصص لهم كل ما يسد معارزهم من المعاش، ثم طلب من تآليف العلماء في العلوم المختلفة فجمع ما ألف خلال عشرين سنة فزاد على مائتي ألف مجلد، فحملها ثلاث سفن وسيرت الى بغداد، ابن الغملاس ص 20

(5) فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة الإسلامية (بغداد 1977) ص 11-12.

ورافق الازدهار التجاري زمن العباسيين تقدم علم الجغرافية وعلوم الأنواء أو الفلك وحساب النجوم والكواكب، وحظي العلماء بهذه المجالات برعاية خاصة من لدن الخلفاء، كالذي ذكر عن تقريب المنصور لآل نوبخت ولإبراهيم بن حبيب الفزاري الذي ينسب إليه ابتكار أول اسطرلاب عند العرب (١). ويعود اهتمام العرب بالمعلومات الجغرافية والرحلات الى انتشارهم الواسع في الأرجاء البعيدة خلال حركة الفتوح ورحلات الحج والرحلة في طلب العلم فضلا عن ارتباط بعض أحكام الشريعة الإسلامية بظواهر علم الفلك والنجوم، الأمر الذي زاد من اهتمام العباسيين بهذه الفنون والعلوم، وقد أثمر ذلك الإهتمام عن ظهور أدب جغرافي عربي ناضج اعتمد الرحلات الميدانية والمشاهدة العيانية ابتداء من القرن الثالث الهجري وبلغ ذروة عطائه في القرن الرابع، وكان نصيب البصرة ونشاطها التجاري في تلك المؤلفات كبيرا تجاوز أحيانا حدود الحقيقة والواقع حتى نشأت بشأنها تصورات شعبية امتزج فيها الواقع بالخيال كما ورد في قصص وحكايات ألف ليلة وليلة.

## **5) تحول الطريق التجاري من البحر الأحمر الى الخليج العربي:**

كان الخليج العربي والبحر الأحمر منذ القدم طريقي التجارة العالمية البحرية بين الشرق والغرب، وقد تناوب كل منهما السيادة في هذه التجارة تبعا للظروف السياسية العالمية، فكانت السيادة في التاريخ القديم للبحر الأحمر ثم أخذت تتحول تدريجيا لصالح الخليج العربي، وابتداء من القرن الثالث الميلادي تحولت السيادة البحرية الكاملة على تجارة الشرق إلى الخليج العربي وذلك لظهور الدولة الساسانية في هذه المنطقة واهتمامها الكبير بازدهار التجارة عبر هذا الطريق حتى أصبح الفرس وسطاء التجارة بين الشرق والغرب. وكان أمرا طبيعيا أن تقاوم بيزنطة احتكار الفرس لتجارة الشرق بكل السبل فتحالفت مع الحبشة لهذا الغرض، وقد استمر

(١) نلينو، كرمو: علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى (روما 1911) ص 143، دائرة المعارف الإسلامية،

الصراع سجالاتاً بينهما لعدة قرون (1). وكان من نتائجه إضافة إلى الأوضاع الداخلية للدولة الساسانية في سنواتها الأخيرة، ركود التجارة عبر الخليج العربي (2). واستمرت كذلك في الفترة الإسلامية الأولى (3) بسبب ظروف الفتح، وكذلك في العصر الأموي على الرغم من خضوع كل من الخليج والبحر الأحمر لسيادة الدولة العربية الإسلامية، لأن الأمويين كان توجههم نحو البحر المتوسط أكثر منه للخليج العربي الذي يعدونه مصدراً للمشاكل والمعارضة لهم، مما كان سبباً في إعاقة انسياب التجارة الشرقية نحو البحر المتوسط من خلال الخليج العربي والطرق المرتبطة به وأوجد ذلك رجحاناً لكلفة النشاط التجاري في البحر الأحمر على حساب تجارة الخليج (4).

وبعد ظهور العباسيين في القرن الثاني للهجرة وانتقال مركز حكمهم إلى العراق وتأسيس بغداد، نقلوا معهم مركز الثقل التجاري البحري من البحر المتوسط إلى الخليج العربي، وبدأت تتضح معالم هذا الانقلاب لصالح طريق الخليج وبدأ يتخلص من قيود المنافسة البغيضة والصراعات السياسية القديمة (5).

وبعد أن أصبح تحت سيطرة الدولة العباسية الكاملة والمباشرة، بعيداً عن أي تهديد خارجي، شجعت الأوضاع الجديدة الدولة على زيادة نشاطها التجاري عبر طريق الخليج العربي مروراً بالبصرة، حتى غدا الشريان الحيوي الذي يغذي حاجات الدولة الفتية. وبالفعل نجح العباسيون في تحقيق هذه السياسة بتحول النشاط التجاري إلى الخليج، مما ترتب عليه تنامي دور البصرة في ميدان التجارة الدولية وازدهارها (6).

(1) انظر: عبد الحكيم اذيع الكعبي، الجزيرة الفراتية ص 87 وما بعدها.

(2) حوراني: المرجع السابق ص 49 وما بعدها.

(3) R.DAGHFOUS: op.cit, p.

(4) HUZAYYIN, *Arabia and the far East*, (Cairo 1942) p.p 29,85.

(5) حوراني: العرب والملاحه ص 174.

(6) عطية القوصي: سيرات وكيش وعدن في القرن 3-6 للهجرة، المجلة التاريخية المصرية، مجلد 23 سنة 1976

ص 53، الألويسي: تجارة العراق ص 25

ومن العوامل الأخرى التي دفعت إلى هذا التحول هي أن طريق البحر الأحمر على الرغم من خضوعه للدولة العباسية إلا أن مخرجه في مصر والشام كانت تتعرض لغارات الروم الذين بقوا ينافسون العباسيين في سيادة هذا البحر، ومن هنا فقد استمر القتال قائما مع الروم (1). كما أن البحر الأحمر كثير الشعاب والجزر المرجانية ويتعرض لرياح شمالية تهب عليه طوال العام (2)، وهناك من اعتقد أن سبب هذا التحول هم أن البحر المتوسط أصبح غير آمن بسبب أعمال القراصنة الذين يسميهم البعض خطأ بـ " القراصنة العرب " (3).

## II- التجار والشركات التجارية:

بانتهاى عصر الفتوح اتجهت جماعات من العرب إلى الحياة المدنية وإلى المشاركة في الفعاليات الإقتصادية، وتمكنت البصرة من النهوض مجدداً، حتى بعد أن انقطع عن أهلها العطاء (4) وأصبحت واردات المقاطعات الغنية التابعة لها ترسل إلى العاصمة الجديدة بغداد، واستطاعت إنقاذ نفسها عن طريق النشاط التجاري مستفيدة من موقعها الجغرافي ومن جهود وثروات أبنائها، فضلاً عن العوامل الأخرى التي ذكرنا.

ففي العصر العباسي تبلور النشاط التجاري وبشكل خاص عن طريق الخليج العربي، ونهضت البصرة بدور نشيط في هذا الميدان، ونتيجة لذلك ساد أهلها حب الإشتغال بالتجارة والترحال إلى أقاصي البلدان طلباً للأرباح وانتقاء المتاجر الرائجة، واشتهروا بالتطوح في الآفاق البعيدة والترامي على الأسفار حتى قال الجاحظ عنهم "بأنه ليس في الأرض بلدة

(1) الطبري: ج 7 ص 614.

(2) حوراني: العرب والملاحه ص 47.

(3) فازلييف: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الوهاب شعيرة وفؤاد حسنين (دار الفكر العربي-دون تاريخ)

ص 374. عادل الألوسي: تجارة العراق مع أندونيسيا ص 25.

(4) أوجد العباسيون جيشاً نظامياً كان العرب أحد عناصره، وقلص المأمون اعداد العرب المشاركة في الديوان (العطاء)، ثم أسقط المعتصم العرب كلياً من هذه المشاركة، عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية ص 62.

واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وأنت واجد فيه البصري...<sup>(١)</sup>، ويقول ابن الفقيه الهمداني "... وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانة القصوى (شرقاً) والسوس الأقصى (غرباً) فلا بد أن يرى فيهما بصرياً أو حميرياً"<sup>(٢)</sup>.

وكان التجار البصريون شديدي العناية بتجاراتهم، فكانوا يحاولون الحصول على أئمن السلع وأجودها وأكثرها تقبلاً لدى أهل البلاد التي يتاجرون معها. وقد شبه آدم متز، تاجر البصرة الذين اشتهروا على ما يبدو بحذقهم وإمامهم بالتجارة وفنونها في هذه الفترة بالشوابين في ألمانيا وبالسويسريين، نظراً لأنهم كانوا من أحسن تجار البلاد الإسلامية وأنشطهم<sup>(٣)</sup>. وينسب إلى التجار البصريين تحمل شدة التغرب في البلاد البعيدة، مما ساعدهم على البقاء مدة أطول للحصول على السلع والبضائع التجارية أو مبادلتها. وقد جاء في رسائل أبي العلاء المعري ما يشير إلى ذلك، فيروي "أن أهل البصرة -سلمهم الله- ينسبون إلى قلة الحنين ويقول إنه قد مرت به هذه الحكاية، وهي أنه وجد على حجر مكتوب:

ما من غريب وإن أبدى تجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطناً

وقد كتب تحته عبارة "إلا أهل البصرة" فإذا كانت هذه سجيته مع أهلهم وأوطانهم فكيف بالذين عرفوهم من إخوانهم<sup>(٤)</sup> وقد جاء عند ابن الفقيه الهمداني أنه قرأ على باب خان طرسوس مثل هذا البيت<sup>(٥)</sup>.

وهناك من الظواهر التي تبدو بعيدة عن الإعتبارات الإقتصادية، ولكنها ترجع في الأغلب إلى تلك الصفة التجارية التي اشتهرت بها البصرة، من ذلك ما عرف به متكلمو البصرة من الهجرة الواسعة والسفر

(1) التصر بالتجارة ص 4.

(2) البلدان: ص 51.

(3) الحضارة الإسلامية ج 2 ص 381.

(4) رسائل أبي العلاء المعري، ط 3 (بيروت 1984) ص 125-126.

(5) البلدان ص 51.





إلى الأقطار البعيدة، ولم يكن ذلك الإنتشار ممكناً إلا عن طريق التجارة، كما يصور ذلك صفوان بن صفوان الأنصاري في قصيدته عن واصل بن عطاء (١).

له خلف شعب الصين في كل ثغرة إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر  
رجال دعاة لا يفل عزيهم تهكم جبار ولا كيد ماكر  
إذا قال مروا بالشتاء تطوعوا وإن كان صيف لم يخف شهرناجز  
بهجرة أوطان وبذل وكلفة وشدة أخطار وكد المسافر (٢)

ومن ذلك أيضاً ما امتازت به آثار البصرة الأدبية والفكرية من سرعة الإنتشار في الأقطار البعيدة، فقد كانت مؤلفات الجاحظ تقرأ في الأندلس وأغلب الأقطار العربية في حياته ويتحدث بشار بن برد -الشاعر البصري المشهور- عن شعره فيقول:

وقد ملأت البلاد ما بين قعفو ر إلى القيروان فاليمين  
شعر تصلي له العواتق والثيب ب صلاة الغواة للوشن (٣)

وما هذه الظواهر إلا دليل على المكانة التجارية التي كانت تتمتع بها البصرة بفضل نشاط تجارها وانتشارهم في البلاد البعيدة فضلاً عن كثرة المترددين عليها من التجار الأجانب.

وتجدر الإشارة إلى أن التجار البصريين الذين وصفوا بأنهم متقنون لصنعتهم، مثابرون على ركوب البر والبحر، دائموا التغرب بالأسفار والترحال وجدوا لهم على طول الطرق التجارية مرتكزات اجتماعية أمنة

(1) وهو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال (حوالي 700-749م) إمام المعتزلة ومؤسس مذهبهم في العدل والتوحيد، ولد بالمدينة وهاجر إلى البصرة حيث انتظم في حلقة الحسن البصري، وإنه أول من سمي معتزلياً لمجانبته تقصير المرجنة وغلو الخوارج، واعتبر العقل مصدراً للمعرفة الدينية إلى جانب القرآن والسنة والإجماع، الموسوعة العربية الميسرة ص 1940.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1948) ج 1 ص 25.  
انظر: طه الحاجري: الجاحظ ص 39-40، شارل بيلا: الجاحظ ص 239.

(3) طه الحاجري: الجاحظ ص 40

ممثلة بالأسر والأشخاص الذين كانوا يتعرفون عليهم ويعقدون معهم صلات عميقة قد تصل أحيانا إلى حد المصاهرة<sup>(1)</sup>، فيكون هؤلاء أشبه بوكلاء لهم ينجزون متعلقاتهم ومتطلباتهم في أمور تجارتهم، ويقومون باستلام وتسليم النقود نيابة عنهم مقابل أرباح ومصالح متبادلة بين الطرفين وربما كتب لهم تعهدات يقر فيها بيع كل ما في مراكبه بالسعر المتفق عليه، وهذه التعهدات تغني عن حضور التاجر عملية البيع<sup>(2)</sup>.

ونقلت لنا حكايات ألف ليلة وليلة معلومات مفيدة عن التجارة والتجار في البصرة آنذاك على الرغم من صور المبالغة والخيال فيها، فقد أشارت إلى أن التجارة أصبحت رمز الثراء والغني في عقاية البصريين حتى أن بعضهم لا يخجل من المشاركة بخمسة دراهم مع أحد كبار التجار، وجلبت له هذه الدراهم الثراء الواسع<sup>(3)</sup>، كما ذكرت أن بعض كبار التجار أمثال الشيخ أبي المظفر قد وصل بتجارته إلى الصين<sup>(4)</sup>. وورد أيضا أن بعض ولاة الأمور في البصرة كانوا يهتمون بالتجارة فامتلكوا المراكب وأشرفوا على تجارتها، ولم تقتصر مواردهم على راتب الدولة بل أصبحوا من كبار التجار المعروفين في البصرة<sup>(5)</sup>، ونظرا لأهمية التجارة أصبح لتجار البصرة مكانة محترمة في المجتمع والدولة<sup>(6)</sup>، وأشارت إحدى الحكايات إلى أن الخلافة العباسية احتاجت إلى خدمات أحد تجار البصرة المعروفين وهو أبو محمد الكسلان<sup>(7)</sup>.

لقد ظهرت في البصرة طبقة من كبار التجار الأثرياء الذين نجحوا في استثمار الأموال وعقد الصفقات التجارية الكبرى وتهيئة مستلزماتها من

(1) سوادى عبد محمد: تجارات البصرة وطرقها مع اقطار المغرب العربي ص 37

(2) ألف ليلة وليلة مجلد 1 ص 59

(3) ألف ليلة وليلة مجلد 1 ص 475

(4) نفس المصدر والصفحة

(5) نفس المصدر 1 ص 57-59

(6) نفس المصدر 1 ص 56

(7) نفس المصدر 1 ص 473 - وما بعدها

السلع ووسائل النقل وغيرها (1)، وتضخمت الأموال والملكيات في البصرة حتى عد التاجر البصري من أغنى التجار وأكثرهم كسباً (2)، من ذلك أن أحد تجار المراكب في البصرة كان يملك 20 مليون دينار، وآخر اسمه الشريف عمر كان دخله في العام 2،5 مليون درهم (3)، وإن مقدار ما كانت تجبیه الدولة من تاجر واحد من تجار البصرة كان بحدود مائة ألف دينار في العام (4)، بينما كان ربح تاجر آخر من تجارها في اليوم الواحد عشرين ألف درهم (5). وذكر أن تاجراً من البصرة يسمى حسن بن العباس له مراكب تبخر إلى الصين والهند بلغ ما يتحصل من ضرائبها مائة ألف دينار في العام (6). وأن ابن سيرين عقد صفقة تجارية لشراء خشب الساج من مناطق المحيط الهندي بلغت قيمتها عشرين ألف درهم، ودفع ثمانين ألف درهم في صفقة أخرى، واشترى مرة زيتاً بأربعين ألف ومات وعليه أربعون ألف (7)، وأن يونس بن عبيد الله دفع ثلاثين ألف درهم عن صفقة تجارية واحدة (8).

لقد وصل التاجر البصري إلى أبعد المناطق في المحيط الهندي كي يقوم بشتى ضروب المتاجرة وكانت الشحنات الثمينة القادمة إلى البصرة تحقق أرباحاً طائلة، إذ كانت تقدر حمولة سفينة واحدة قادمة من الصين بحوالي نصف مليون دينار (9). وقد احتكرت بعض العوائل البصرية الملاحة وملكية المراكب التجارية، فيذكر أن أبا بكر أحمد السيرافي كان يمتلك معظم السفن التي كانت تبخر إلى الهند والصين، كما كان يمتلك مخازن كبيرة للحبوب والعطريات، وكانت ثروته تقدر بثلاثة ملايين دينار (10).

(1) عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ العراق الاقتصادي ص 68

(2) ابن الفقيه: البلدان ص 191

(3) إبراهيم حلمي: حالة العراق الاقتصادية، مجلة لغة العرب، ج 11 السنة 2 (عدد أيار 1913) ص 501

(4) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي ج 2 ص 177

(5) باش أعيان: البصرة (دار البصري بغداد 1961) ص 22

(6) رحلة السيرافي: (نشر علي البصري) ص 10

(7) صالح العلي: التنظيمات ص 260

(8) أبو نعيم الأصبهاني: حيلة الأولياء ج 4 ص 16

(9) لومبارد: الجغرافية التاريخية ص 197

(10) S.HUZAYYIN, op.cit. P. 157

لقد أصبحت البصرة في هذه المرحلة من تاريخها محور النشاط التجاري في الخليج العربي ومحط أنظار تجارها، بعد أن تحولت إليها أغلب الأنشطة التجارية في الخليج، فقد انتقل إليها تجار دارين (1)، الواقعة في البحرين (2) وشاركوا زملاءهم البصريين نشاطهم التجاري، فضلا عن إقبال التجار المسلمين الآخرين على تجارة البصرة، فقصدوها وأقاموا في مبانيها بعد أن حولوا نشاطهم وثرواتهم إلى هذا المركز الرئيسي على رأس الخليج العربي.

إن المعلومات المتوفرة عن حجم التجارة البصرية وأرباحها آنذاك تظل قليلة ولا تمكننا من رسم صورة دقيقة عنها، وإن المعلومات المتوفرة في المصادر والمقالات المشتتة التي نعثر عليها في هذا الصدد غالبا ما اتسمت بسمة خيالية متأثرة بحكايات ألف ليلة وليلة ومغامرات السندباد البحري وفيها الكثير من المبالغة (3)، وحتى لو افترضنا عدم وجود المبالغة في بعضها فهي لا تعطينا صورة كاملة عن تلك التجارة. ويقدر الأستاذ صالح أحمد العلي حجم تجارات البصرة في القرن الأول الهجري بحوالي مليون درهم سنويا (4)، ولنا أن نقدر حجم ما وصلت إليه أرباح التجارة في العصر العباسي بعد أن بلغت البصرة ذروة ازدهارها التجاري في القرن الثالث الهجري، وبعد أن ارتفع مستوى المعيشة وارتقى المجتمع درجات مهمة في سلم التمدن والحضارة وأصبح سوق السلع الكمالية رائجا بحكم أبهة الدولة وتعدد حاجات المجتمع، وصارت التجارة هي السيدة في البلاد (5). وقد تفاوتت أرباح التجارة بحسب سلعتها فالكمالية منها يباح فيها الربح إلى 300% أما البضائع الأخرى فلا يزيد الربح فيها على 3% وقد ردد الفقهاء عند تعرضهم لهذا الموضوع ما يدل على أن الربح 10% يعتبر مألوفاً وعادياً (6).

(1) ابن حوقل : صورة الأرض ص 236

(2) كانت دارين مركزا هاما للتجارة الشرقية في صدر الإسلام، صالح العلي: التنظيمات ص 258

(3) كلود كاهن: تاريخ العرب ص 146.

(4) التنظيمات ص 260

(5) آدم متر: الحضارة الإسلامية ج 2 ص 272

(6) أنظر صالح العلي: التنظيمات ص 260

## (1) أصناف التجار<sup>(1)</sup>:

**أ- التاجر الخزان:** وهو تاجر الجملة الذي يحاول استغلال الفرص الملائمة فيشتري البضائع وقت توفرها وكثرة عرضها ورخصها، ويعتمد إلى خزنها انتظاراً لتغير أحوال السوق فتتعدم هذه البضاعة أو تصبح نادرة بسبب انقطاع توريدها أو تأخرها لصعوبة نقلها من مناشئها الأصلية، أو ترتفع أسعارها لشدة الطلب عليها في الأسواق، وعند ذلك يطرحها للبيع فتكون أرباحه كبيرة ومضمونة. وحتى يتجنب هذا الصنف من التجار الخسارة التي تتجم عن تغير فجائي في الأسعار، يحتاج باستمرار إلى معرفة أحوال السوق والأحوال البضائع في أماكنها من حيث أسعارها، ووفرته أو قلتها وظروف الطرق والأحوال السياسية في بلده، وأن لا يغامر بشراء صفقة كبيرة دفعة واحدة وإنما يحاول تقسيم مشترياته من نفس البضاعة إلى دفعات بين الواحدة والأخرى بحدود الخمسة عشر يوماً، وأن يكون دقيقاً في تقدير أرباحه المتوقعة. كما يستلزم منه هذا الحرص أن يدرس طبيعة الحاكم من حيث عدله أو جوره وقوته أو ضعفه<sup>(2)</sup>. وقد حدث في أيام أبي جعفر المنصور أن رخصت الأسعار مما دعا أبا أيوب التاجر أن يشتري طعام سواد الكوفة وسواد البصرة طمعاً في الربح، وقد كتب عليه المنصور كتاباً بذلك وما زالت أسعار المواد في رخص مستمر بدل أن يصعد السعر أو يقف على الأقل، وقد أرققه المنصور بالمطالبة بالمال<sup>(3)</sup>.

(1) كلمة تاجر كانت تدل في أول الأمر على معنى محدود وهو (بائع الخمر)، ثم اتسع مدلولها شيئاً فشيئاً وشمل كل من يزاول مهنة بيع وشراء البضائع التي يحتاجها الناس عامة، وغالباً ما كانت تطلق على من يقوم بتجارة أدوات العرف الغالية المجوهرات والثياب الفاخرة والرياش والرقيق وبذلك فهم يختلفون عن الباعة من حيث البضاعة ومن حيث الناس الذين يجري عليهم تصريف البضاعة، إذ أن هؤلاء الباعة كانوا يقومون ببيع المواد الاستهلاكية الضرورية لحياة الناس اليومية. كما تختلف فئة التجار عن فئة أخرى لها صلة بالنشاط التجاري وهم الداللون (السماسرة) الذين يدلون المشتري على السلع، ويدلون البائع على الأثمان، انظر: دائرة المعارف الإسلامية مقال (Hoffening) مادة (تجارة) ومقال (بيكر) مادة (سمسار)، بدري محمد فهد: العامة في بغداد الإسلامية (بغداد 1967) ص 63، 73.

(2) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة (القاهرة 1318) ص 48-51.

(3) الجهشيري: أبو عبد الله محمد بن عبدوس الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (القاهرة 1938م).

**ب- التاجر الركاض:** هذا الصنف من التجار ينتقل من بلد إلى آخر وهو في سفر دائم يتحمل المصاعب ومخاطر الطرق، وكان عليه أولاً أن يعرف نوع التجارة التي يجب جلبها، وأن يحتاط فيما يشتري، وأن يستصحب معه قائمة بأسعار البضائع التي ينوي شراءها ويقارن عند الشراء بين سعر السلعة وبين سعرها عنده في القائمة ثم يضيف إليها التكاليف التي ستترتب على البضاعة لحين وصولها إلى السوق، بما في ذلك المكوس وأجور النقل والمدة التي يقضيها في الطريق ليحسب أرباحه بدقة. وعلى التاجر الركاض إذا دخل بلدة لا يعرفها جيداً أن يفتش عن الوكيل المأمون وأن يتفهم أحوال السوق لئلا يورط نفسه، ويكون في ذلك قد أخذ بقول التجار "التبصر نصف عطية" (1)، أو التدبير نصف التجارة، وكان لمعظم هؤلاء التجار الخدم والمرافقون والحمايات، فقد ذكر الدمشقي أن التاجر "إذا اشترى الأثقال، يحتاج إلى أن يكون معه أصحاب ثقات وأعوان كفاة يعينونه وقت الشراء ووقت الحزم والحمل ووقت التخليب والبيع. فإن كان وحيداً تأذى قلبه وجسمه وطمع في سرقة ماله الحمالون والجمالون والبحرية وكل من يجري مجراهم ممن يحتاج إلى معاونته بسببها في التثقل" (2).

**ج- التاجر المجهز:** وهو التاجر المستقر في بلده، ويعتمد في المتاجرة على وكلاء له في بلدان مختلفة ممن لهم الخبرة في ميدان التجارة ويتحلون بالصدق والأمانة، ولهم حصة متفق عليها من الأرباح. ويقوم هذا التاجر بإرسال البضائع إلى هؤلاء الوكلاء، ويترك لهم حرية التصرف في بيعها أو تخزينها. ثم إن هؤلاء الوكلاء يشترون له البضائع ويرسلونها إليه (3). إن الإشارات الكثيرة إلى هؤلاء الوكلاء تدل على أهميتهم في الحياة التجارية آنذاك، فهم يقومون بما تقوم به فروع الشركات التجارية في الوقت الحاضر (4) ويذكر أن العلامة ابن خلدون أدلى بمعلومات مماثلة لما

(1) الدمشقي: المصدر السابق ص 50-52.

(2) نفس المصدر ص 45.

(3) الدمشقي: المصدر السابق ص 52.

(4) الشيباني: كتاب المحارج في الخيل، نشره يوسف شاحت (ليبزج 1930) وإعادة طبعه بالأوفسيت مكتبة المنشي

ذكره الدمشقي بخصوص أصناف التجار ولكنه أغفل ذكر التاجر المجهز<sup>(١)</sup>.

## (2) الشركات التجارية:

الشركة في البيع معروفة عند العرب قبل الإسلام، فقد كان الناس يشتركون في البيع والتجارة بمال الشركة مناصفة أو على نسب يتفقون عليها، أو المساهمة بمال يقدم من جهة ويعمل يقوم به الطرف الآخر وفق شروط يتفق عليها المشاركون بالنسبة إلى الربح أو إلى الخسارة<sup>(٢)</sup>. ويقال للشريك الجار. والجار الشريك في العقار والشريك في التجارة<sup>(٣)</sup>.

وفي الإسلام وبعد ظهور طبقة نشيطة من التجار في القرنين الثاني والثالث للهجرة، عمدت هذه الطبقة إلى تأسيس شركات تجارية اتخذت أشكالاً متعددة اختلف الفقهاء حولها من حيث جوازها أو بطلانها. وقد تكون هذه الشركات مؤقتة أو دائمة، وربما كانت تقوم بأعمال تجارية وشراكة تقتصر على البصرة وحدها، وربما تمتد إلى مدن أو مراكز تجارية أخرى<sup>(٤)</sup>، وقد ميز فقهاء الحنفية في هذه الشركات ثلاثة أنواع:

أ- شركة العنان: وتسمى العنان فقط، أو شركة عنان، وسميت هذه الشركة شركة عنان لمعارضة كل واحد منهما صاحبه بمال مثل ماله، وعمله فيه مثل عمله ببيعاً وشراءً، وقد أشير لها في شعر ينسب إلى النابغة الجعدي حيث يقول:

وشاركنا قريشاً في نقاها      وفي أحسابها شرك العنان<sup>(٥)</sup>

(1) المقدمة: ص 475 وما بعدها.

(2) حواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 7 ص 407.

(3) تاج العروس: 3: 111 (مادة جار).

(4) صالح العلي: التنظيمات ص 269.

(5) تاج العروس: 7: 148 (مادة شرك)، حواد علي: المفصل ج 7 ص 409.



وهناك من اعتقد أن الإسم مقتبس من عنان الفرس، أو من المعنى المراد من إطلاق العنان لكل من الشريكين في حرية التصرف في المال المشترك، والإشتراك في كل التجارات أو في بعضها، ويجوز أن يتساوى فيها الشريكان أو يتفاوتا في رأس المال والربح (١). وفي حالة تساوي رأس المال قد لا يتساويان في الربح، وهو ما لا يجوز عند مالك والشافعي، وقد لا يتساويان في رأس المال ولكنهما يتساويان في الربح. وقد برر الفقهاء ذلك بقولهم: إن الناس متفاوتون في الحظ في أعمال التجارة. ويجوز لكل بالغ عاقل من كلا الجنسين المساهمة في هذه الشركة (٢). وقد أقرت الشافعية هذه الشركة من حيث الأساس (٣)، في حين شددت المالكية على أن تكون نسبة الربح مساوية لنسبة الحصة من رأس المال (٤).

**ب- شركة المفوضة:** ينسب إسمها إلى طبيعة عملها على أساس أن لكل من الطرفين الحرية في التصرف في كل شيء من أملاكها في حضور الطرف الآخر أو غيابه، ويتساوى فيها الشركاء في المال والأرباح (٥). وقد اتفقت كل من المالكية والحنفية على جوازها، وإن اختلفتا في بعض شروطها (٦)، بينما هي غير جائزة عند الشافعية (٧)، كما رفضها الحنابلة (٨). وقد استند الفقهاء في جواز هذه الشركة إلى حديث شريف نوه بجوازها حيث قال (تفاوضوا فإنه أعظم للبركة)، وذلك أن اشتغال هذه الشركة على أمرين جائزين هما الوكالة والكفالة فبحكم الوكالة يكون شراء أحد الشريكين كشرائهما معاً، وبحكم الكفالة يكون كل منهما مطالباً بما

(١) الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود: كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ط 2 (بيروت 1974) ج 6 ص 57.

(٢) ابن رشد الحفيد، أبو الوليد محمد بن أحمد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد باعتناء عبد الحليم محمد عبد الحليم وآخر (القاهرة- بدون تاريخ) ج 2 ص 287. وانظر أيضاً: الشيباني: المخارج في الحيل ص 57-58.

(٣) الشافعي: الأم (القاهرة 1321-1325) ج 3 ص 281.

(٤) مالك بن أنس: المدونة، رواية سحنون (دمشق بدون تاريخ) ج 12 ص 59-62.

(٥) الكاساني: ج 6 ص 58، جواد علي المفصل ج 7 ص 409.

(٦) المدونة: ج 12 ص 40، السرخسي: أبو بكر محمد بن أحمد: الميسوط (القاهرة 1324-1331 هـ) ج 11 ص 179.

(٧) الأم، ج 3 ص 206، ج 8 ص 109.

(٨) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الإقتصادي ص 127.

يترتب على صاحبه من التزامات بسبب التجارة (١).

**ج- شركة الوجوه:** وتسمى أيضا شركة المفاليس، لأنها شركة بدون رأس مال وتعتمد أساسا على حسن سمعة أفرادها ووجاهتهم، فهم الذين يقومون بشراء البضائع بالنسيئة (٢) ويبيعونها بالنقد، لذلك سميت بشركة الوجوه، لأنه لا يباع بالنسيئة إلا للأشخاص المعروفين ذوي السمعة الحسنة ووجهاء المجتمع (٣). وهي في نظر الحنفية جائزة لأنها تقوم على أساس الوكالة والعرف (٤)، بينما رفضها مالك (٥) والشافعي (٦) لعدم وجود رأس المال فيها فهي باطلة لأن الشركة تقوم عادة على تنمية رأس المال عن طريق المتاجرة (٧).

**د- وهناك شركة أخرى:** أقرتها كل من الحنفية والمالكية واعتبرتها الشافعية باطلة، وهي شركة الأعمال أو الأبدان. وتضم الخياطين والحمالين والدلالين والدباغين وغيرهم. وطريقتهم أن يشتركوا في أجره العمل (٨).

إن معالجة المصادر الفقهية لموضوع الشركات كان يعتمد بالدرجة الأولى على التجربة والمعاشية عن قرب، ولم يكن حديثا نظريا مجردا، كما يؤكد ذلك الدكتور عبد العزيز الدوري (٩)، بل إنه كان محاولة لتنظيم التعامل وفق ظروف وشروط مقبولة، فلا غرابة من أن نجد الحنفية وبحكم قربهم من النشاط التجاري الواسع في العراق وبخاصة في بغداد والبصرة يتوسعون في تصنيف الشركات ويبررون جواز الشركات غير المتفق عليها، كشركة الوجوه أو المفاوضة وغيرهما، ونراهم يؤكدون على أن

(١) الكاساني: ج ٦ ص ٥٨.

(٢) النسيئة: البيع أو الشراء بالآجل (بالدين)، بداية المجتهد ج ٢ ص ١٣٦.

(٣) الكاساني ج ٦ ص ٥٧.

(٤) السرخسي: المبسوط ج ١١ ص ١٥٥.

(٥) المدونة: ج ١٢ ص ٤١-٤٢.

(٦) الأم: ج ٨ ص ١٠٩.

(٧) ابن رشد الحفيد: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٩.

(٨) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٩) تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٢٩.

التعامل بها بدأ منذ صدر الإسلام، محاولين تيسير أي نوع من أنواع التعامل في الشركات، فيذكرون الإستحسان إلى جانب القياس، كما وضعوا صيغا لعقود تحد من التلاعب في حين نجد أن أهل الحجاز لا يعرفون شركة العنان مثلا، لذلك لم يشر إليها مالك، ويتشددون في تصنيف الشركات الأخرى. وقد ذكرت كتب الفقه أن الشركة تقوم بين اثنين اصطلاحا، لأن الشركة في الواقع كانت تتألف بين ثلاثة أو أكثر.

### III- الإئتمان والصيرفة:

#### 1) الإئتمان

الإئتمان هو الإستلاف أو القرض من رب المال بقصد التجارة أو أي غرض آخر. وكان للإئتمان دور هام في توسع النشاط التجاري من خلال ما يوفره من رؤوس أموال لأغراض التجارة في أوقات الحاجة واستغلال رأس المال الفائض بشكل منتج أيضا. وقد شاع التعامل بالإئتمان بشكل خاص في التجارات البعيدة خلال مراحل الإزدهار التجاري في العراق، وذلك حفظا للمال من مخاطر الطرق وتقلبات الظروف العامة<sup>(1)</sup>. وهناك ثلاثة أنواع من الإئتمان:

- **السلف المؤجل:** وهو اقتراض مال يسدد في وقت لاحق حسب الإتفاق.
- **الإستلاف المنجم:** اقتراض يسدد بأقساط تحدد مسبقا، مواعيد دفعها.
- **المضاربة<sup>(2)</sup>:** وهي مأخوذة من الضرب في الأرض ابتغاء للربح<sup>(3)</sup>، وتسمى في الحجاز المقارضة -من القرض-. وهي أن يدفع الشخص أموالا أو بضائعا لشخص آخر بقصد العمل في التجارة مقابل حصة من الربح يتفق عليها الطرفان، وينظم الإتفاق أيضا شروط العمل والأماكن التي يذهب إليها المضارب، وإذا لم يتجاوز هذه الشروط فالمضارب في حل من أي خسارة متوقعة باستثناء تحمل نفقات الإقامة والسفر. وربما

(1) الكاساني: بدائع الصنائع: ج 6 ص 207.

(2) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ص 40، السدوري: تاريخ العراق ص 129.

(3) الكاساني: ج 6 ص 207.

ساهم المضارب في حصة بسيطة برأس المال (1). وهذا النوع من الإئتمان هو الأكثر انتشاراً، والأكثر فائدة للعمل التجاري.

والمضاربة كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، وانتشرت بعده، وقد أقرها الرسول صلى الله عليه وسلم وتعامل بها بعض الخلفاء والصحابة وأبنائهم منذ صدر الإسلام. ويذكر أن عبد الله وعبيد الله ولدي عمر بن الخطاب قدما العراق بقصد التجارة، ولم يكن لديهما المال اللازم لشراء ما يحتاجان من البضائع، وكان والي البصرة يومئذ أبو موسى الأشعري، فأقرضهما من بيت المال على أن يسددا المبلغ المقرض إلى الخليفة عمر في المدينة، وعندما علم الخليفة بذلك أنكر فعلهما، واقترح عليه بعض الصحابة حلاً وسطاً وهو أن يكون الربح بالمناصفة، نصف لهما والآخر لبيت المال (2). مما يشير إلى أن هذا النوع من المضاربة كان جائزاً وشائعاً خاصة في التجارة البعيدة.

لقد كان للمضاربة دور كبير في تشغيل رؤوس أموال من لا يحسنون تدبيرها، فقد تكدست الأموال عند مجموعة من القادة العسكريين وكبار الموظفين وبعض العرب ممن ليست لديهم خبرة في الأمور التجارية، أو لأنهم لا يريدون القيام بها بأنفسهم. ومن جانب آخر كان هناك من الأشخاص من لديه خبرة وحقق بأمور التجارة، ولكنه لا يملك المال اللازم، مما شجع على تكوين شراكات إقراض أو مضاربة بين هؤلاء التجار وبين أصحاب رؤوس الأموال، بأن يعمل صاحب الخبرة والحقق بمال صاحب الثروة مقابل ربح يتفق عليه، وأصبح كل منهما يكمل الآخر عملاً بالمضاربة (3)، وقد ذكرت المصادر أسماء بعض الشخصيات العربية التي كونت مثل هذه الشركات في صدر الإسلام منهم: عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وحكيم بن حزام وعبد الله بن مسعود وغيرهم (4).

(1) الدمشقي: المصدر السابق ص40، الشيباني: المخارج في الحيل ص27-28. بداية المجتهد: ج3 ص289.

(2) الكاساني: ج6 ص76.

(3) نفس المصدر: ج6 ص80.

(4) صالح العلي: التنظيمات ص271.

وكان التجار يقرض بعضهم بعضاً، كما كانوا يبيعون عملاءهم بالدين على أن يسددوا أثمان البضائع فيما بعد. فقد ذكر أن رجلاً توفي في البصرة وكان مديناً بمبلغ ثمانين ألف درهم لتاجر طحين. وأن المرابين كانوا يقرضون الأموال ويأخذون الفائض عليها، وقد شكلوا في البصرة حلقة خاصة تدعى بحلقة (أصحاب العينة) (١).

## (2) الصيرفة:

تطلبت ضرورات التوسع التجاري قيام مؤسسات صيرفية ومالية متطورة لعبت دوراً مهماً في تنشيط التجارة من خلال تسليف التجار وتسديد حساباتهم دون الحاجة إلى الدفع المباشر في كل صفقة تجارية، فضلاً عن توفير وسائل الدفع المأمونة من الضياع وذلك لترامي أطراف الرقعة الجغرافية التي وصلتها التجارة الإسلامية. وقد ظهرت بعض هذه المؤسسات في العصر الأموي وكانت مهمتها محدودة ثم توسعت زمن العباسيين، وكان معظم الذين زاولوا الصيرفة والإئتمان من أهل الذمة وبخاصة اليهود منهم (٢)، مستفيدين من مبدأ تحريم الربا في الإسلام (٣).

ومن أهم العوامل التي ساهمت في تنشيط العمل الصيرفي، طبيعة النظام النقدي الإسلامي طيلة القرنين الثاني والثالث الهجريين، وقد كان يعتمد هذا النظام النقد المزدوج أو ما يسمى بنظام المعدنين. لقد أدى ذلك إلى تنشيط المعاملات التجارية في العراق بشكل خاص، ففي الوقت الذي شاع فيه تداول الدرهم الفضي الفارسي في الشرق والدينار الذهبي البيزنطي في الغرب كان العراق في العصر العباسي يتعامل بالمعدنين إلى أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي (٤). وهكذا ارتبطت منظومتان

(1) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 131.

(2) آدم مئتر: الحضارة الإسلامية ج 2 ص 383-384.

(3) القرآن الكريم: سورة البقرة: الآيات 275-280. وقد لجأ بعض المسلمين إلى المخارج الفقهية لمزج التجارة

بعمليات الإقراض والإئتمان مثل بيع (العينة) أي أن يبيع الدائن للمدين أية سلعة بمبلغ مرتفع موجد، ثم يعود

ويشترها منه بثمان معجل أدنى. انظر: ابن سعد: الطبقات ج 2 قسم 1 ص 76.

(4) فازيليف: العرب والروم ص 18.

نقديتان كانتا في الماضي متباعدتين، ارتبطتا الواحدة بالأخرى بواسطة الدينار والدرهم الإسلاميين وريثي الدينار البيزنطي والدرهم الساساني، وتحقق ارتباط العملة الفضية بالعملية الذهبية في ظل دولة الإسلام على أساس أن كل دينار يعادل عشرين درهم (١). ومن الطبيعي أن يكون رجحان التداول لصالح الدينار الذهبي في ميدان التجارة الخارجية.

الدينار البيزنطي	الدرهم الفارسي
عملة التجارة الكبرى	عملة التجارة الكبرى
المجال الذهبي	المجال الفضي

* الدينار	{ الإسلاميان
* الدرهم	

### عملتا التجارة الكبرى

وقد عرفت البصرة نظاما ماليا متطورا لتجارة الإئتمان (Commerce du crédit)، كان أرقى ما وصل إليه التعامل المالي في عموم الدولة الإسلامية، ويعلق آدم متر على ذلك بقوله أن "مما له دلالاته أن يظهر ذلك في مدينة البصرة المشهورة بتجارها والتي تقع على الحدود بين فارس والعراق، وذلك لأن أهل البصرة كانوا من أحسن تجار المملكة الإسلامية، وكان لهم جاليات في جميع البلاد التي تجلب منها التجارة" (٢).

وبازدياد نشاط التجارة الخارجية في البصرة أصبحت هذه المدينة مركزا لأعمال الصيرفة (٣)، وخاصة للعملات الأجنبية، فقد كانت هناك أسواق خاصة بالصرافين (٤)، يزيدنا ناصر خسرو بيانا حول طبيعة عملها بقوله: "كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكاً، ثم يشتري كل

(١) لومبارد: المرجع السابق ص 154.

(٢) الحضارة الإسلامية: ج 2 ص 380.

(٣) ظهرت الصيرفة في العراق منذ العهد البابلي، وفي العهد الساساني كان في المدائن أقلية عربية مسيحية اشتهرت بالصيرفة، انتقلت بعد الفتح الإسلامي إلى الكوفة وكان لها الفضل في تقدم من الصيرفة في العراق. يوسف

غنيمة: تجارة العراق قديما وحديثا ص 18-19، النوري: تاريخ العراق ص 165.

(٤) ناصر خسرو ص 146.

ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف، فلا يستخدم المشتري غير صك طالما يقيم في البصرة" (١). وفي القرن الثالث الهجري توسعت مهام الصيارفة وأخذوا يسلفون التجار ويقبلون الودائع ويتوسطون بين الناس ودار الضرب، بأخذ الذهب والفضة من الناس لسكها (٢)، دافعين لأصحابها نقودا تعادل قيمتها الإسمية، وبهذا كانوا يستفيدون من الفرق بين القيمتين (٣). لقد قدم الصرافون خدمات كبيرة لدعم الحركة التجارية في البصرة خاصة في مجال تسليف التجار الأموال وتسهيل تجارة الإئتمان (٤). ويطلق الدكتور عبد العزيز الدوري على أساليب المعاملات التجارية التي كانت تجري في ميناء البصرة طريقة التعامل المزدوج وهو أن يأخذ التجار العملة المحلية لقاء بضائعهم ثم يشترون بهذه النقود بضائع من تلك البلاد، ويقول أن هذه الطريقة وصلت حد الكمال في البصرة، حيث كانت العملية بوجهيها تتم عن طريق الصرافين دون الحاجة إلى النقود فعلا، ويذكر أن هذه الطريقة كانت تتبع أحيانا في الصين (٥).

وتأسست في البصرة بنوك خاصة ساهمت في تنشيط ودعم الحركة التجارية، إذ كان أصحابها يستثمرون أموالهم ونقودهم كلها أو بعضها في الأعمال التجارية والإقراض كما كانوا أحيانا يشتغلون بالودائع التي يأخذونها من الناس. وقد كان للزبير بنك كبير في سوق الكلاء-ميناء البصرة النهري- وكانت له فروع في الإسكندرية والكوفة والمدينة (٦). وكان أصحاب المصارف في البصرة يستخدمون الهنود بكثرة لتمشية أعمال مصارفهم (٧)، فقد اشتهر عبيد السند بالحذق في العمل الصيرفي، وذكر الجاحظ أنه من مفاخرهم أن الصيارفة لا يولون أكيستهم وبيوت مصارفهم إلا السند وأولاد السند لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الصرف

(1) سفرنامه: ص 146، صالح العلي: خطط البصرة ص 130-131.

(2) البلاذري: فتوح ص 656.

(3) البلاذري: فتوح ص 656، صالح العلي: التنظيمات ص 242-297.

(4) كلود كاهن: تاريخ العرب 234.

(5) تاريخ العراق الاقتصادي ص 154.

(6) ابن سعد: الطبقات ج 3 ص 76-77، المسعودي: مروج الذهب ج 1 ص 544.

(7) الجاحظ: فضل السودان على البضيان (رسائل الجاحظ القاهرة 1344 هـ) ص 84.

وأحفظ وآمن (١).

وساد في أجواء البصرة التجارية استعمال الحوالات أو السفاتج والصكوك على نطاق واسع. والسفتجة واحدة من أهم أدوات التعامل المستند إلى الائتمان، ويقصد بها " أن يعطى مالا لآخر. وللأخذ مال في بلد المعطى، فيوفيه إياه هناك، فيستفيد أمن الطريق " (٢) وهي بمثابة الحوالات أو الكمبيالية الآن [La Lettre de change]. وقد سهلت هذه الوسيلة التبادل التجاري بين المدن والأقاليم، وخففت من مصاعب نقل النقود بين البلدان وتعرضها لأخطار السرقة والنهب (٣)، وأن أهم فائدة للسفتجة هي استعمالها من قبل التجار لتصفية حساباتهم بين الأقطار البعيدة وذلك عن طريق كتابة السفاتج إلى وكلائهم. وقد أشارت حكايات ألف ليلة وليلة إلى طريقة التعامل التجاري بالحوالات في البصرة، وذكرت أن بعض التجار كان يتخوف منها (٤). كما استعملت السفتجة كاستعمال صكوك المسافرين [Travellers Cheques] في الوقت الحاضر. ويروي التتوخي عن تاجر من البصرة قال " وخرجت أنا تحت الليل بمرقعة راكبا حمارا ومعى غلامان من غلmani ودليل، وليس معى شيء من الدنيا إلا سفاتج بخمسة آلاف دينار " (٥). ويذكر الجهشيارى أن ابن الزبير يأخذ بمكة الورق من التجار ويكتب لهم إلى البصرة ... فيأخذون الأجور من ورقهم. وهذه هي السفاتج التي يتعامل بها الناس (٦).

أما الصكوك فهي وسيلة أخرى من وسائل الائتمان، والأصل فيها كلمة (جك) معربة من الفارسية بمعنى كتاب أو أمر خطي بدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيه (٧)، وهي الشيك cheque في الوقت الحاضر.

(١) نفس المصدر ص 224.

(٢) القاموس المحيط 1: 201 (باب الجيم فصل السين)

(٣) الثعالبي: ثمار القلوب ص 545، الصابي: أبو الحسن هلال: الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (القاهرة

(1958) ص 110.

(٤) مجلد 1 ص 112.

(٥) نشوار المحاضرة ج 8 ص 131.

(٦) الوزراء والكتاب (القاهرة 1938) ص 103.

(٧) مختار الصحاح ص 265 - مادة صك-



ويذكر اليعقوبي أن عمر بن الخطاب كان أول من " صك وختم أسفل الصكاك " (١). وقد استعملت الصكوك في البصرة منذ العهد الأموي إذ كانت الأرزاق والرواتب تدفع أحياناً بصكوك. ففي زمن زياد بن أبيه ابتكر الحارث بن نوفل ما يأخذ الناس حصتهم بموجبها (٢) وساد استعمالها في العصر العباسي على نطاق واسع منذ عهد المنصور (٣) لدفع الكميات الكبيرة من النقود (٤)، وخاصة في بغداد والبصرة والأبلة.

(١) تاريخ اليعقوبي (النصف ١٩٦٤) ج ١ ص ١٢٢.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ج ٤ ص ١٤٣.

(٣) الجهشاري: الوزراء والكتاب ص ١٠٩-١١٠.

(٤) الجهشاري: ص ٧٧-١٥١، ابن حوقل: ص ٦٥، آدم متر: ج ٢ ص ٣٢٠.

## خاتمة الباب الأول

كان تطور البصرة من معسكر الى مركز تجاري مزدهر هياً أساساً ثابتاً قامت عليه نهضة المدينة ونموها المتصل، وضمن استمرار ذلك النمو حتى في الوقت الذي استنفذت فيه البصرة أغراضها كقاعدة عسكرية، ولم يعد هناك من مبرر لتوسعها وتقدمها على ذلك الأساس. وقد كان للنشاط التجاري النصيب الأوفر في دفع حركة التحول الحضاري في المدينة وتغيير تلك النواة العسكرية التي يغلفها جدار سميك من البداوة إلى مجتمع متحضر ومستقر يفيض بالخير والعطاء.

لقد نمت البصرة وتوسعت بسرعة كبيرة منذ تأسيسها في العقد الثاني من القرن الأول الهجري. وكانت أسباب توسعها الأول عسكرية بحتة، فقد شجعت الدولة القبائل العربية على الهجرة إليها، والاستقرار فيها لضمان استمرار حركة الفتوح في المشرق، ورصد تلك الجبهات بالمقاتلين العرب.

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي واجهت سكانها الأوائل، إلا أن سيل المهاجرين على المدينة لم ينقطع، فتوسع عمرانها، وأخذت تسير بسرعة نحو حياة الاستقرار والتمدن، وقد ساعد على ذلك جملة من العوامل أهمها خضوع القبائل لسلطة الدولة المركزية، وظهور مؤسسات مدنية أدت، مع الزمن، إلى إحداث متغيرات جوهرية في بنية المجتمع الجديد، كما ساهم نظام العطاء هو الآخر في إضعاف هيمنة القبيلة على أفرادها، فضلاً عن تطورات أخرى عجلت في ذلك التحول نحو الحياة الحضرية.

لقد صرف كثير من رجال الدولة المتنفذين ممن استقر بالبصرة جهودهم إلى ممارسة التجارة، ووجد عدد من القرشيين والتقييين الذين أقاموا بها الفرصة سانحة لإبراز ملكاتهم في هذا المجال. وقد جمع رجال مثل مالك بن أنس، وأبو بكر ونافع بن الحارث وزباد وأبناؤه ثروات ضخمة، كما أتيحت الفرص لعدد كبير غيرهم من ذوي النفوذ لأن يستقروا

بالبصرة ويشاركوا بفعالية في حياتها الإقتصادية وخاصة في مجال التجارة. ونشط أصحاب رؤوس الأموال والتجار والمهنيون من غير العرب، وخاصة الفرس، وأداروا أعمالهم فيها بحرية، تحميهم الدولة أو نظام الولاء، وأتيحت لهم الفرص للاشتغال بالتجارة إلى جانب استخدام الحكومة لبعضهم في مصالحها المختلفة كسك العملة، وجبي الأموال وغيرها من الوظائف الإدارية والكتابية.

وقد تحققت للبصرة إنجازات مهمة أيام ولاتها البارزين كعبد الله بن عامر وزيد وعبيد الله ابنه والحجاج، فبنيت الأسواق، وشقت القنوات، وأجريت الأنهار، وازدهرت المواصلات المائية، وسرعان ما حلت البصرة محل فرضة الأبله القديمة كأعظم مركز تجاري على الطريق التجاري القديم الذي كان يربط الشرق بالغرب عبر الخليج العربي. وكان لموقع البصرة هذا، على الزاوية الشمالية للخليج، وفي نهاية الرأس الجنوبي لنهري دجلة والفرات الصالحين للملاحة، وانفتاحه على شبكة من الطرق البرية إلى مختلف الإتجاهات، أعظم الأثر في بروز دورها التجاري، وتكوينها صلات تجارية وثيقة مع مختلف البلدان في المشرق والمغرب، وخاصة بعد انتقال مركز الدولة العربية الإسلامية إلى العراق وتأسيس بغداد في النصف الأول من القرن الثاني الهجري.